

غرام غوانتانامو  
سليمان العليمات

رواية

## -1-

سأروي لكم قصتي، نعم أنا بنفسي سأرويها لكم، ولماذا  
أتركها لغيري يرويها كما يحلو له؟!  
اسمي كريم شمس الدين عبد الخالق. تم إطلاق  
سراحي من معتقل غوانتانامو لعدم كفاية الأدلة ضدي. وماذا  
كانت التهمة أو التهم التي برئت منها؟ أنا نفسي لا أعرف ما  
هي؟

لكن سوف أبدأ من يوم اعتقالني في العاشر من تشرين  
الثاني من العام الأول بعد الألفين من ميلاد المسيح عليه  
السلام، في مدينة مزار الشريف في أفغانستان. ليلة لا أنساها  
ما حييت، كانت ليلة حالكة الظلام، يلفها السواد، ليلة كان  
ليها بهيماً موحشاً لا يبعث الارتياح في النفس. وجدت  
نفسي- دون سابق تخطيط - مع مجموعة من المجاهدين، لم  
ألتق بهم من قبل، ولا أكاد أميز ملامحهم.

بدأت الطائرات الأمريكية تقصف الموقع الذي كنا  
نتحصن فيه، انهمرت القنابل علينا مثل المطر، لا نعرف من  
أين تأتيها؟ فتحت أبواب المدافع من كل حدب وصوب،  
والصواريخ عابرة البحار الموجهة بأشعة الليزر كان لها  
نصيب وافر في زيارة موقعنا. كنت في السابق أميز بين  
أصوات المدافع المختلفة وأستطيع أن أحدد منشأها وقوتها  
وقطر قذيفتها. كنت أستطيع التفريق بين الأسلحة الفردية بكل  
أنواعها ومن خلال سماع إطلاق أعيرتها المختلفة. كنت  
أعرف كل أنواع الطائرات من خلال سماع أصواتها،  
أستطيع أن أحدد نوعها ونوع محركها والمدى الذي تصله  
قذائفها. أميز إن كانت تخترق حاجز الصوت أم لا؟ إن كانت

القنابل حقيبية أو صوتية وهمية. ولكن هذه الليلة كانت مختلفة كلياً عن باقي الليالي.

بدأت معركة غير متكافئة بكل المقاييس، جميع أنواع الأسلحة تصب الجحيم على موقعنا، صوت الانفجارات يدوي في كل مكان. السماء تشتعل وألوان القذائف المختلفة تتراقص كأن جهنم فتحت أبوابها. ومن يستطيع أن يأخذ من جهنم حطباً؟!!

الكل يسأل: ما العمل؟

قال أحدهم:

- الصبر، ما علينا سوى الصبر!

فأجاب آخر:

- نعم، لا خيار لنا غير ذلك، وما لنا إلا الصبر.

كانوا ثمانية من المجاهدين وأنا تاسعهم، الكل يحمل سلاحه الفرديّ ويده على الزناد. قال أحدهم:

- ماذا نفعل إزاء آلة الحرب التي لا طاقة لنا بها؟

وقال الآخر:

- كأنما تم تطوير أسلحة الأمريكيان لمحاربة

عدوّ من كوكب آخر، غير كوكب الأرض، أطلقوا

عليها اسم "حرب النجوم". كيف نحارب عدوّاً غير

مرئيّ؟ كيف نحاربهم وهم يقومون بقصفنا من

البحار والمحيطات على بعد مئات الأميال؟ وماذا

يفيد سلاحنا أمام آلة الحرب هذه؟ نحن مثل فارس

شجاع يمتطي صهوة جواده ليقاتل طائرة تخترق

حاجز الصوت! إنها حرب دونكشوتية!! ولكن لن

نستسلم، الموت دون ذلك.

خيم السكون للحظات، وكل ما أتذكره سماع انفجار هائل عند مدخل المكان الذي كنا نتحصن فيه. لم أصح إلا ويدي خلف ظهري، وقدمي مقيدتان بسلاسل فولاذية غليظة مربوطة في عمود مثبت داخل هيكل طائرة نقل. نظرت حولي لأرى أربعة ممن كانوا معي في مثل وضعي وحالهم مثل حالي. شعرت بدوار شديد ولم استطع التحرك، بالكاد استطعت أن أحرك أصابع قدمي لأطمئن بأني لا أزال على قيد الحياة. اقترب أحدهم وكان يرتدي اللباس العسكري، وقال: - ممنوع التحرك أو الكلام. كل واحد يبقى في مكانه. - أين أنا؟ أين نحن؟ - أنتم رهن الاعتقال. ونحن الآن على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم. إنكم على متن إحدى رحلاتنا الجوية. سنأخذكم إلى بلاد غير بلادكم. - ولكن يا سيدي أريد أن أسأل كيف تم ربطتي بهذه السلاسل؟

- لقد تم قذفكم بقنابل تحتوي على مادة تعمل على ارتخاء العضلات الهيكلية، تعطل الجهاز العصبي المركزي، وتشل الجهاز التنفسي لمدة خمس وأربعين دقيقة. ينتشع الهواء بهذه المادة ويستنشقها الشخص عبر تنفسه. أنت واحد من المحظوظين الذين ما زالوا على قيد الحياة. هناك الكثير ممن ماتوا بسبب تعرض الجهاز التنفسي للشلل التام. فالذين تمكنوا من أسرهم خلال هذه الفترة الزمنية المحدودة، قمنا بالإسعافات اللازمة لهم وإعطائهم الترياق المناسب

لإبقائهم على قيد الحياة، ومن لم نستطع أسره ذهب إلى جهنم.

- وهل أنا ذاهب إلى الجنة؟
- نحن نقوم بشحنك ورفاقك إلى قاعدة خليج غوانتنامو قبل أن تذهب إلى الجنة.
- وأين يقع خليج غوانتنامو؟
- سنتعرف عليه جيداً، فلا تتعجل الأمور.

كانت الطائرة تخلو من المقاعد، ويبدو أنها تستخدم لنقل البضائع. تم تكديسنا على أرضية الطائرة، وجميعنا مقيدون بسلاسل غليظة، ومكومون بعضنا فوق بعض، مثل أكياس الطرود البريدية، أو قل مثل أكياس القمامة، فهذا أقرب للواقع. الكل منا واجم. شارد الذهن. صامت. لا نعرف مصيرنا، ولا نعلم كم عدد الساعات، أو ربما الأيام التي استغرقتها الرحلة؟



حطت الطائرة أخيراً على أرض المطار. نزلت على سلم الطائرة وأنا مقيد اليدين والقدمين. بالكاد أستطيع أن أخطو. الجنود منتشرون بكثرة على أرضية المطار وحوله، وكذلك الدبابات والمدافع الرشاشة موجودة بكثافة.

تم منحي رقم خمسة وأربعين، منقوش بخط أسود كبير على ظهر البزة البرتقالية اللون، التي ألبسوني إياها والمصنوعة من نسيج النايلون. تم اقتيادي إلى قفص من الفولاذ الصلب، أكثر ما يشبه القفص الذي يستعمل في نقل

الحيوانات، له باب صغير. ركلوني بأقدامهم لإجباري على الدخول إلى القفص بصعوبة. بعد ذلك تم نقلي وقفصي بواسطة رافعة إلى موقع في زاوية المعسكر، حيث تم ترتيبنا على شكل نصف دائرة. كل قفص يبعد عن الآخر حوالي خمسة أمتار، وبين كل قفصين جنديان، كل منهما يدير ظهره للآخر، وكل جندي يده على زناد الرشاش، على أهبة الاستعداد لإطلاق النار دون سابق إنذار.

كان موقعنا، على ما يبدو، يقع في الزاوية الشمالية من المعسكر، ومن خلفنا خطوط من الأسلاك الشائكة بارتفاع يزيد على عشرة أمتار، وبعمق لا يقل عن ثلاثة أمتار، وجميعها متصلة بأجهزة إنذار، وأسلاك كهربائية، بالإضافة إلى كاميرات مراقبة تعمل على مدار الساعة. ويبعد البحر حوالي خمسمائة متر، تتمركز فيه قوارب مسلحة برشاشات أوتوماتيكية وأخرى تحمل رادارات دائمة الدوران.



تم تثبيت قدمي بأغلال مصنوعة من الصلب ثقيلة ومشدودة بإحكام إلى مقدمة القفص، بينما يداي مشدودتان إلى وراء ظهري ومثبتة بالجزء الخلفي منه. لا حراك، ولا كلام. الجنود يتناوبون حراستنا على مدار الساعة.

يأتي جميع جنود المعسكر وضباطه بعد أن ينهوا وجبة طعامهم، ويلقوا بقايا فضلاتهم على المعتقلين. منذ بداية وصولي وأنا ألتقي هذا النوع من الضيافة. في كل يوم يلقي على جسدي بقايا طعام لعدة أفراد وعلى ثلاث دفعات على أقل تقدير، حسب الوجبات التي تقدم إليهم. بعد ذلك تأتي

الجرذان لتتغذى على هذه الفضلات، فتبدأ بلعق الفضلات الملقاة على جسدي. كنت أراقب هذه المخلوقات وهي تلتقط طعامها من أجزاء جسدي المختلفة. أشعر بدبيب قدميها تتسلق قدمي وتلغقه بلسانها الصغير. ثم إلى ساعدي. أشعر بوخز خفيف متكرر في جسمي، شعور يدغدغ كل خلايا جسمي، ويعطل كل تفكيري، ويبدأ همي ينحصر فقط في كيفية طرد هذه المخلوقات؟ لا أستطيع أن أطردها ويديا وقدمي مقيدة. حاولت أن أنهرها بصوتي، ولكن لم أفلح، فقلت في نفسي، ربما لا تعرف لغتي، فكيف لها أن تفهم ما أريد. كنت أعاني من صعوبة في النوم، حيث لا يخلو للجرذان أن تأكل إلا في الليل عندما تبدأ ساعتها البيولوجية بالنشاط وساعتي بالسكون. أشعر بدبيب أرجلها وحرارك ذيولها على جسدي لتحفز كل عصبونات مراكز الجهاز العصبي وأبقى في حالة قلق دائم وعصبية مفرطة لقلة النوم. بقيت على هذه الحالة ثلاثة أشهر كاملة، لم يكلمني فيها أحد ولم يدين مني أحد.





-2-

في صبيحة أحد الأيام حضر إلى قفصي ثمانية من الجنود، وفكوا وثاقي المربوط في القفص وطلب مني أحدهم الصعود إلى عربة يدوية صغيرة لها عجلتان جانبيتان مصنوعتان من الفولاذ. قام أربعة جنود بشد السلاسل المربوطة بأطرافها إلى أركانها الأربعة شداً وثيقاً. تم جر العربة من قبل جنديين في الأمام والبقية للحراسة، اثنان من كل جانب وآخران من الخلف.

وصلنا مكاناً فسيحاً خافت الإضاءة، يبدو أنه مرأب للبناية. ضغط أحد الجنود على زر المصعد، وتم إدخاله مع عربتي والحراس جميعاً إلى غرفة المصعد الذي صعد بنا إلى الأعلى، حيث وجدت نفسي في أحد المكاتب، كان يجلس وراءه رجل بدين، متوسط القامة، أصلع الرأس وشعر كثيف يغطي أعلى أذنيه ومؤخرة رأسه. عيناه زرقاوان، كم أكره العيون الزرقاء. لقد سبق أن رفضت العمل في صيد الأسماك مع ابن عمي، الذي كان يعد ملك صيد الأسماك في القرن الأفريقي. لأن الصيادين أخافوني كثيراً من سمك القرش، وبخاصة ذا العينين الزرقاوين. لقد أرهبني من كثرة حكاياته عن سمك القرش هذا وبدأت أكره صيد الأسماك أو حتى سماع أخبار مغامراتهم مع سمك القرش وكيف كان يفتك بهم ويقطع شباكهم. أنا الآن وجهاً لوجه مع أحدهم.

نهض عن كرسية وطلب من الجنود أن يتركونا وحدنا.  
خرج الجميع وبقيت أنا وإياه وحيدين هو واقف وأنا جالس  
على العربة.

- أنا توماس هابيكونز من مكتب التحقيقات الفدرالية.
- تشرفت بمعرفتك.
- ما اسمك أنت؟
- كريم.
- أريد أسمك كاملاً.
- كريم شمس الدين عبد الخالق.
- مكان ولادتك؟
- جيبوتي.
- لا أريد اسم موطنك. أريد اسم البلدة التي ولدت فيها؟

- ولدت في بلدة دخيل، في عمق جيبوتي.
- ما تاريخ ميلادك؟
- 1967.
- ما مهنتك؟
- تاجر موز.
- أكرر سؤالي، ما هي مهنتك؟
- وأنا أكرر جوابي، تاجر موز.
- ولكن مدون عندي بأن مهنتك تختلف عما ذكرته.
- ما المدون عندك؟
- مدون هنا بأن مهنتك مجاهد.
- إن مهنتي هي تجارة الموز، ولا أعرف مهنة غيرها.

- هل تعلم يا سيد كريم أن جميع المهن وتعريفاتها مدونه هنا، في هذا الكتاب، الذي ندعوه بالكتاب الأصفر. أبحث عن تعريف لمهنة مجاهد، لا يوجد ذكر لها. لا يوجد فيه تعريف ولا شرح لهذه المهنة. أخبرني بتفصيل أكثر عنها، عن هذه المهنة.

- أستطيع أن أتكلم لك عن تجارة الموز حتى صباح الغد يا سيدي.

- أنا لا أعني تجارة الموز، بل مهنة مجاهد.  
- أنا ليس لي مهنة غير مهنة تجارة الموز.  
- كيف تفسر وجودك مع المجاهدين عندما تم اعتقالك؟

- صدفه، وحسب صدفه.  
- وهل وجودك هنا صدفه أيضاً؟  
- نعم، هو كذلك بالضبط.  
- لقد تم اعتقالك في مدينة مزار الشريف. قل لي كيف

وصلت إليهم، وكيف تفسر وجودك معهم يا سيد كريم؟  
- أنهيت المرحلة الثانوية من مدرسة صلاح الدين في بلدتي عام 1985، وخرجت إلى سوق العمل مع والدي الذي كان يعمل على تزويد القوات الفرنسية بالموز. كان أبي تاجر موز. أخبرني أنه بحاجة إلى أن أكون معه في السوق ليتمكن من السيطرة على أعماله. كنت أعلم أنها ليست المهنة التي تناسبني، ولكن ليس هناك فرص عمل كثيرة لسكان جيبوتي. جميع فرص العمل الذهبية يسيطر عليها الأجانب وبخاصة الفرنسيين. ولقلة خبرتي لم أستطع أن أدير عملي بشكل جيد،

وبالتحديد لم استطع السيطرة على المخامر التابعة لنا. كان الكثير منها يتلف ويسبب خسارة كبيرة لنا.

في أحد الأيام رست سفينة أمريكية على الشاطئ، طلبوا كميات كبيرة من الموز، بل إنهم كانوا على استعداد لشراء كل ما لدينا من موز. بعث لهم كل ما كان لدينا من مخزون. وعلى الأثر نشأت صداقة بيني وبين السيد جوني راكوب المسؤول عن التموين. كنت أجمع له كل المحصول ويأتي مرة في الشهر، يدفع ثمن الموز ويرحل. بدأت أشعر بدفء جريان النقود في يدي، ولو أنها قليلة ولكنها كانت كافية بالنسبة لتاجر مبتدئ مثلي، أو هكذا كنت أظن.

أخبرني السيد راكوب في إحدى المرات أنه يبيع الموز إلى المجاهدين في أفغانستان، وأني سوف أجنبي أضعاف ما أجنه حالياً من المال إن رافقته إلى هناك وبعثهم ما عندي من الموز مباشرة. كانت هذه أول مرة أسمع فيها باسم المجاهدين.

حدثني السيد راكوب عن الكثير من الشباب في مثل عمري الذين ذهبوا إلى هناك وحققوا ثروات طائلة، واذكر حينها أنه قال:

- إنها فرصتك في أن تخرج من عالمك الضيق هذا إلى عالم رحب واسع. أرى في وجهك عناصر النجاح التي لا يمتلكها الكثيرون. كل مقومات رجل الأعمال الناجح موجودة لديك. عندك طاقة هائلة مخترنة يجب عليك استنفادها. إنني أكاد أسمع صوت تضارب شحنات طاقتك في داخلك. أخرج هذه الطاقة واستثمرها لصالحك. كون نفسك يا

كريم. انظر إلى هؤلاء الفتية من حولك واسأل نفسك، هل أريد أن أعيش مثلهم أنتظر أن ترسو سفينة لأبيهم تجارتي؟ قلت في نفسي ربما تكون هذه فرصتي بتوسيع تجارتي وجني الأرباح للخروج من الفقر الذي أعيشه ولا أستطيع أن أتخطى خطوطه. سئمت كل خطوط الفقر وبأبعادها العمودية والأفقية. ربما تكون فرصتي لأرى عالماً غير عالمي، وأصبح من رجال الأعمال ويعمل عندي مستخدمون ينتظرون كل آخر شهر أن أدفع لهم رواتبهم. سيكون سعودي في الخط العمودي وهم سيقفون في الخط الأفقي. اقترب السيد راكوب مني وهمس في أذني: - إذا رغبت في الذهاب إلى هناك فعليك ألا تخبر أحداً، يجب أن يبقى الأمر طي الكتمان بيني وبينك فقط.



حزمت أمتعتي دون تردد، وأخبرت والدي بالأمر حتى يكون مستعداً لتزويدي بكميات الموز التي أحتاجها عندما أتصل به. أبحرت السفينة بنا وكان يوجد على متنها عشرون شاباً، أغلبهم في مثل سني. كانت هذه المرة الأولى التي أغادر فيها موطني. وصلنا إلى ميناء أورومارا في الباكستان ومن ثم استقلنا القطار إلى مدينة بيشاور. كان في انتظارنا شخص في بداية الأربعينيات من عمره، يدعونه حيدر ولد تابع.

استقبلنا حيدر بحفاوة بالغة والابتسامة لا تفارق محياه. أخبرني أننا سننطلق مع الغروب، ولكن قبل ذلك علينا الذهاب إلى سوق السلاح، قلت له:

- لماذا لا نذهب إلى سوق الموز، أريد أن أراه وأعرف الأنواع والأسعار؟

ضحك ضحكة عالية، وقال:

- نذهب الآن حيث قلت لك، وفيما بعد يمكننا الذهاب إلى المكان الذي تريده. لا يوجد وقت كاف لدينا.

ذهبت برفقته إلى سوق السلاح، ذهلت من كبر السوق ومن كثرة الأسلحة وتنوعها، فهناك الأسلحة الخفيفة والثقيلة، ويمكنك شراء ما تريد من الذخائر لأنواع الأسلحة كافة. كنت معتاداً على تجارة الموز، كنت أعرف كل أنواعه وخصائصه وصفاته ومصدره، ولكن سوق السلاح لم يكن لي فيه معرفة.

اقترب منّي حيدر وقال:

- أي نوع من السلاح تفضّل؟

- لا توجد عندي خبرة في السلاح. هذه أول مرّة في حياتي أشاهد سلاحاً، كان أبي يقتني بندقية صيد قديمة، وكان يمنعني من الاقتراب منها أو حتى الإمساك بها.

- لا بأس بذلك، سوف أشتري تشكيلة واسعة من السلاح، وسنقوم بتدريبك عليها، جميع المجاهدين يجيدون استعمال أنواع الأسلحة كافة. لا بأس عليك، عند قدومي إلى هنا، كنت مثلك لا أعرف شيئاً عن السلاح ولا عن المجاهدين.

- طلب حيدر من أحد مرافقيه أن يتولى عملية تحميل الأسلحة في إحدى الشاحنات الكبيرة. دس يده في جيب سترته الداخلية وقام بإخراج كميات كبيرة من الدولارات،

من فئة المائة، ودفع لتاجر الأسلحة ثمن ما اشتراه. التقت نحوي وقال:

- أنت ستركب بجانبني في تلك السيارة، وأشار بسبابته إلى سيارة جيب شبه عسكرية، تقف على بعد ثلاثين متراً تقريباً.

- انطلقنا في المسير، وكان حيدر سعيداً جداً وهو يقود سيارة الجيب، بادرني بالسؤال:

- من أين أنت يا كريم؟

- من جيبوتي.

- ابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

- أنا من مدينة النوق، من موريتانيا.

- ولماذا أنت هنا؟

- التحقت بالمجاهدين قبل خمسة أعوام.

- طلبت من حيدر أن يخبرني كيف وصل إلى هنا

وكيف التحق بالمجاهدين؟

- كنت أعمل في صيد السمك، كنت أجمع الكثير منه

في اليوم، وأجمعه أكواماً أكواماً على الشاطئ. كنت أبيع

القليل منه فقط. بقية اليوم كنت أسلي نفسي بأن أعمل منه

أشكالاً مختلفة، مثل الأكواخ والبيوت الصغيرة والقصور

والقلاع ومن حوالها الجنود والحراس وكذلك الدبابات

والطائرات والبارجات والجيوش. أفضل الأشكال التي كنت

أنتن عملها هو أشكال النوق، فانا أعشق النوق جداً. ورغم أن

الكثير من السمك كان لا يباع، إلا أنني كنت كل يوم أذهب

إلى الصيد، واصطاد الكثير منه، وهكذا.

في أحد الأيام زارني رجل أعمال قال بأنه أمريكي. قال بأنه سمع من الناس بأني أفضل صياداً للسماك في المنطقة وأبدى رغبته في الاستثمار في صيد السمك. أخبرني أن اسمه اسحق زائيفي. اقترح أن نبنى مصنعاً لتعليب الأسماك. وافقت على الاقتراح. بدأنا بتجهيز البنية التحتية، وقام هو بجلب الماكينات اللازمة وكذلك خبراء التعليب. قمنا بإنتاج كميات ضخمة من المعلبات. أخبرني في أحد الأيام بأنه يرغب في توسيع تجارتنا وفتح أسواق جديدة غير السوق المحلية أو الأسواق المجاورة لنا، قلت له:

- ما الأسواق التي ترغب بها؟

- سوق أفغانستان، كما تعلم فإن أفغانستان ليس لها شواطئ، لا يوجد عندهم سمك. الكثيرون منهم يعانون من اضطرابات صحية بسبب خلل الغدة الدرقية الناشئ عن نقص اليود. وهذا بسبب نقص السمك عندهم. إنها سوق واعدة. بالإضافة إلى أن هناك الكثير من المجاهدين والذين هم بحاجة ماسة إلى معلباتنا، أنهم بحاجة إلى المون التي يمكن حفظها لفترات متباعدة. إنها سوق ضخمة، سنحقق أموالاً طائلة، لن نعرف كيف ننفقها.

- إنها بلاد بعيدة، لماذا لا يأتون إلى هنا ويشترى ما

يحتاجون من المعلبات مباشرة من مصنعنا؟!

- إنها التجارة يا حيدر. التجارة ليس لها حدود. نحن

نذهب إليهم، سوف نساعدهم ونساعد أنفسنا. سوف ننتج معلباتنا بنكهات مختلفة. يجب أن نرضي جميع الزبائن.

حضرت وزائيفي إلى هنا وأنشأنا مكتباً للاستيراد

والتصدير توليت إدارته. حققنا أرباحاً هائلة، وكان حريصاً

على أن يأخذ نصيبه من الأرباح أولاً بأول. من خلال تجارتي تعرفت إلى جميع الفصائل الموجودة على الساحة الأفغانية، بكل عقائدها ومذاهبها المختلفة. أكثر ما أعجبت به زهدهم في هذه الدنيا، قررت أن أنضم إليهم، وكما تراني أشتري الأسلحة لهم.



وضع السيد هابيكونز يديه خلف رأسه، بدأ يحرك مقعده إلى الأمام وإلى الخلف، صمت برهة وقال:

- وماذا بعد؟

- بدأت بتجارة الموز.

- هل تدربت على السلاح؟

- من المنطق أن أتدرب عليه، فأنا بحاجة للدفاع عن نفسي، كنت أسير مئات الكيلومترات في أرض تخلو من الحجر والشجر. كنت أحمل مبالغ طائلة من النقود. لا بد من أن أحمل السلاح للدفاع عن نفسي.

- إلى أي من الفصائل كنت تبيع الموز؟

- لقد عرفت جميع الفصائل وذلك من خلال معرفتي بالسيد حيدر الذي كنت أرافقه غالباً. والذي كان يسهل لي عملية البيع. وتجارتي لم تقتصر على فصيل معين، كنت أبيع الجميع وأكسب من الجميع، تجمعني صداقة قوية بكل الفصائل.

- تابع حديثك يا سيد كريم.

- مكثت خمس سنوات عدت خلالها إلى موطني، جيبوتي. بعد ذلك قررت أن ألتحق بالجامعة، حصلت على

منحة دراسية لدراسة الكيمياء في جامعة الصداقة في روسيا.  
كنت أرغب منذ صغري بأن أدرس الكيمياء.

- لماذا اخترت دراسة الكيمياء؟

- أعتقد بأن الموز أفضل أنواع الفواكه على وجه الأرض. ومن خلال عملي وتجارتي في الموز وجدت بأن هناك طلباً كبيراً على نكهة الموز كما تعلم؛ فهم يستعملون نكهة الموز في مختلف الصناعات الغذائية. الطلب أكثر من العرض. قلت في نفسي إذا درست الكيمياء فمن السهل جداً وجود طريقة كيميائية للحصول على نكهة الموز اصطناعياً. كنت أعتقد، ومازلت، أن من واجبي أن أنشر استعمال الموز ونكهته على المستوى العالمي. خطوة بسيطة على عتبات طريق العولمة.

- كيف تفسر وجودك مع المجاهدين واعتقالك معهم؟

- بعد تخرجي في الجامعة وعودتي إلى جيبوتي، عملت في سلك التعليم لمدة ثلاث سنين عجاف في مدرسة بلدتي دخيل. لم أجد نفسي في التعليم ولم أحقق شيئاً من طموحاتي من خلاله. بعدها عدت إلى تجارة الموز، وعدت أتعامل مع رفاقي القدماء، تجارة فحسب.

- الأوراق التي أمامي تقول غير ذلك.

- ماذا تقول أوراقتك؟

- إنك أحدهم يا كريم.

- أنا لا أنكر ذلك، إني أحد تجار الموز؟

- لا، لا أنت أحد المجاهدين.

- قلت لك من أنا، ولو كنت أحد المجاهدين لقلت لك

ذلك، ليس لدي شيء أخفيه.

- هذا ما هو مكتوب، سجلاتنا صحيحة وأوراقنا لا تكذب.
- أنا أصدق من الأوراق.
- سنرى من هو أصدق، نحن أم أنت؟
- هل ستتم محاكمتي؟
- لا، لن تكون هناك محاكمة.
- لماذا لا تطلقون سراحي إذاً؟
- ليس بهذه السهولة وبهذه السرعة.
- هل من الممكن أن أستعين بمحام؟
- لا، قلت لك بأنه لن تكون هناك أي محاكمة. لا توجد محكمة ولا مرافعة ولا قضاة ولا محامون.
- ولماذا أنا في هذا القفص؟
- أنت مصنف من المحاربين الأعداء.
- ماذا تعني؟
- أنت لست أسير حرب.
- أنا لا أشعر بأنني أسير. أشعر بأنني حبيس. أريد أن أعرف ما حقوقي؟
- لا يوجد لك أي حقوق.
- هناك اتفاقيات عالمية تنص عليها حقوقي.
- قلت لك أنك من المحاربين الأعداء. جميع الاتفاقيات لا تسري عليك.
- ولماذا؟
- تم وضع جميع المواثيق والمعاهدات العالمية المتعلقة بهذا الخصوص في المتحف الحربي في كابيتول هيل.
- لا أمانع محاكمتي حسب القانون الأمريكي.

- أنت لست على أرض أمريكية لتحاكم حسب قوانينها.
- وماذا تريدون مني؟
- أن تعترف.
- أعترف بماذا؟
- بأنك واحد منهم. وأحد من الذين خططوا لهدم البرجين.
- قلت لك إني تاجر موز وليس لي علاقة بهدم البرجين.
- كل ما أريده أنا ورجالي أن تعترف وتخبرنا عن مجموعتك وكل خلاياكم النشطة والكامنة.
- لا أعرف شيئاً مما تذكره.
- سنرى إن كنت ستعترف أم لا.
- لا أريد أن تعاملوني مجرد نكرة أحمل رقم خمسة وأربعين. أكره البزة التي أرتديها وأكره اللون البرتقالي، لا أريدها. أكره كذلك مادة النايلون المصنوعة منه، وأكره كيف تمت تسميته بهذا الاسم(\*). أريد واحدة مصنوعة من الكتان. أريدها بلون الموز.

---

(\*) NYLON=Now You Lousy Old Nippons



-3-

بعد أسبوع تم اقتيادي مرة أخرى إلى قاعة مجاورة لمكتب السيد هابيكونز، حيث فك وثاق يدي وبقيت قدماي مربوطتين. اقترب مني أحدهم وأخبرني أنه يدعى دنيس هوفر، وأنه من مكتب تحقيقات الكلاب الضالة، هكذا ذكر في مقدمة حديثه، دنا مني وقال:

- أخبرني السيد هابيكونز أنك لم تكن متعاوناً معه. لقد حاول أن يساعدك، ولكن أنت لم تساعد نفسك. لم تخبره بحقيقة أمرك. مكتوب في التقرير الذي أمامي بأنك خطر وماكر.

- هذا شأنه يكتب ما يشاء ويخبركم ما يشاء. أنا لا أستطيع أن أغير من حقيقة أمري شيئاً. أخبرتكم الحقيقة كما هي. إنها الحقيقة. أنتم لا تريدون معرفة الحقيقة أصلاً. تريدون معرفة الحقيقة التي ترغبون في أن تعرفوها، حتى وإن كانت كاذبة.

- على أي حال سيتم إخضاعك لآلة كشف الكذب. سيتم التعرف على شخصيتك أكثر. وسنعرف إن كنت تقول الحقيقة أم لا. من خلال الاستجواب سوف نتضح لنا صورة تكوينك، كوضوح قوس قزح بجميع ألوان طيفه. من خلالها يمكن تحليل شخصيتك.

- وماذا تفيد هذه الآلة في كشف الحقيقة؟ ألم يخترعها إنسان؟ إنها تخلق من أي ذكاء حتى تكتشف الحقيقة أو الكذب. هل من المعقول أن يخترع الإنسان آلة تفوقه ذكاءً؟! أو حتى محاكاته في ذكائه. هذا غير معقول، فالعقل البشري أكثر تطوراً من هذه الآلات التي نتحدث عنها.

- هذه الآلة هي من الجيل الخامس من الروبوت، الجيل الذي يحاكي ذكاؤه ذكاء البشر. أنت من القلائل المحظوظين الذين لهم شرف إخضاعهم للكشف عن الحقيقة عبر هذه الآلة.

- لا يهمني إن كانت من الجيل الخامس أو غيره. ما النتيجة التي يمكن أن أحصل عليها إذا كان ذكاء هذه الآلة الاصطناعي يحاكي ذكاءكم كبشر؟! النتيجة واحدة، غيابكم نفسه الذي أعاني منه ويعاني منه من تسوقون عليهم هذا النوع من الهراء. غياب... غياب... غياب، وليس غير ذلك.

- كان بالإمكان أن توفر علينا كل هذا العناء وأن نخبرنا من أنت؟ وتجيب عن جميع أسئلة السيد هابيكونز. ربما يساعدنا ذلك في أن نضع حدوداً للذكاء وللغباء.

- أنا لا أضع قوانين لهذه اللعبة ولا أرسم لها حدوداً. أنا حبيس فحسب في قفص قادني حظي العاثر فيه أمامكم، وأن أكون حيوان تجار بكم.

- الأقوياء هم من يضعون قوانين كل الألعاب  
وحدودها، وهم دائماً الرابحون. والآن اكشف عن نصفك  
العلوي.

لم يكن من الصعب أن أكشف نصفي العلويّ. كنت  
أرتدي قطعة واحدة فقط، ذات لون برتقالي مقيت، لها سحاب  
من الأمام، بدأت أسحبه إلى الأسفل حتى السرّة. نظرت إلى  
جسدي، رأيتة غريباً عني، فقد كانت تغطيه بقع حمراء  
مسلوخة بمساحات مختلفة.

طلب مني السيد هوفر أن أجلس على مقعد بجانب  
الآلة. اقترب مني وهو يحمل في يده أنبوباً يحتوي على مادة  
مطرية لزجة قام بعصرها على أجزاء من ذراعي وصدري،  
ربما حتى لا تتسخ الآلة، هكذا خيل لي. ضغط على زر في  
منتصف الجهاز، خرجت منه ستة أنابيب، اثنان نوا لون  
أحمر، واثنان نوا لون أزرق والآخران نوا لون أصفر.  
وضع أحد الأنابيب ذا اللون الأحمر عند القلب والآخر في  
منتصف الصدر من الجزء العلويّ. ووضع أحد الأنابيب ذا  
اللون الأزرق على رسغ يدي اليمنى والآخر على رسغ يدي  
اليسرى. بينما وضع الأنبوبين ذوي اللون الأصفر في  
الشاهدين من أصابع يديّ ثم طلب أن أكون في حالة  
استرخاء كامل. بدأ تشغيل الجهاز، شعرت بتيار كهربائيّ  
خفيف يسري في جسدي من خلال أصابعي. بدأ بطرح  
الأسئلة التقليدية (ما اسمك؟ مكان ولادتك؟ تاريخها؟....). ثم  
السؤال التقليديّ الآخر:

- هل سرقت في حياتك؟

- نعم.

- هل كذبت في حياتك؟  
- مثل التجار الآخرين، كثيراً ما أكذب.  
أعاد الأسئلة التي طرحها علي السيد هابيكونز في السابق، وهو ينظر إلى شاشة الجهاز التي ترسم خطوطاً متعرجة، تعتمد على النبض والضغط الانبساطي والانقباضي، وحركة التنفس من شهيق وزفير، وكذلك كهربائية الجسم. جميعها ناتجة عن حركات العضلات اللاإرادية. يحدث اختلال في الرسم عندما تكون الإجابة غير صحيحة وذلك بسبب تغير يحدث في فسيولوجية الجسم. نظر إلى الشاشة وعاود النظر نحوي، وقال:  
- لا يوجد أي تغير في الخطوط المعروضة على الشاشة. يبدو أنك خضعت لدورات خاصة وشاقة في علم النفس، تحسباً لمثل هذا الموقف.  
- أبدأ... لم أخضع لأي دورة في علم النفس. أنا فقط أقول الحقيقة التي لا تودون أن تصدقوها.  
- والآن لنعد إلى موضوعنا. من الذي دبّر الهجوم على البرجين؟  
- وددت لو أعرف، حتى أريحك وأريح نفسي من هذا العذاب الذي أنا فيه.  
- هل رأيت أحدهم هنا في المعتقل؟  
- أنتم أدري مني.  
- هل تستطيع أن تخبرنا عن أوصافهم؟  
- من هم؟

- لا أريد فلسفة، فقط أجب على قدر السؤال. هل تستطيع أن تصف لنا أشكالهم حتى نستطيع أن نرسم صورة تقريبية لهم؟

- أنا يا سيدي تاجر موز، وجهازك أثبت بأنني لم أقل غير الحقيقة.

بدأ الغضب يعلو وجهه، وأخذ ينظر إلى الجهاز ثم يعاود النظر إلي. طلب مني الارتقاء على طاولة ارتفاعها يقارب المترين وبمساحة لا تتجاوز نصف المتر. بدأ بحل الأنابيب المرتبطة بجسدي.

سنلعب لعبتنا الآن حتى تقر وتقول الحقيقة. حاولت أن أتجنب اللجوء إلى هذا الأسلوب من أجل أن تعترف. لا فائدة من ذلك.

أحضر جهازاً آخر صغير الحجم، موصولاً به أربعة أنابيب. قام بوصل الأنابيب بالإبهامين وفي إصبعي قدمي الكبيرتين، ثم أوصله بالكهرباء. اقتربت يده من مفتاح الجهاز، وقام بوضعه على إشارة تشغيل. بدأ السيد هوفر بالضرب على جهاز التحكم عن بعد. شعرت بتيار كهربائي يدخل إلى جسدي من خلال إبهام قدمي اليمنى، وبحركة لا إرادية رفعت قدمي بزاوية قائمة. ثم تسلس التيار الكهربائي إلى قدمي اليسرى، فقامت برفعها إلى الأعلى وبزاوية قائمة وهكذا بالتناوب.

وبدأت بالرقص المجنون على الطاولة الصغيرة. وارتفع صراخي من شدة الألم. أخذ يزيد من شدة التيار الكهربائي. علا صراخي، تجمع من كان في المكاتب المجاورة، لا أذكر عددهم. قلت في نفسي، جاء الفرج، سوف

يقولون دع هذا المسكين وشأنه، ولا حاجة لهذا النوع من التعذيب. شيئاً فشيئاً خاب ظني وتلاشى أمني. حيث راحوا يصفقون له وعلا صفيرهم مع كل حركة كنت أقوم بها.

بعد ذلك قام بتمرير التيار الكهربائي إلى يدي اليمنى ومن ثم إلى يدي اليسرى. بدأت ألوح بكلتا يدي بالتناوب. ثم عاود الكرة مرة أخرى إلى قدمي. الجميع يضحك ويصفق. شعرت وكأنني مخلوق عجيب أتوا به للتسلية، أو قرد كالذي كان يرقصه القرداتي في شوارع بلدتي دخيل في أعماق جيوتي. بدأت حركات يدي وقدمي تنتسارع مع ضغطه على لوحة المفاتيح الموجودة أمامه. مرة من خلال قدمي ومرة من خلال يدي، وثالثة من خلالهما كليهما. بدأ صراخي يرتفع حتى شعرت بأن شرايين رقبتني ستنفجر في أي لحظة. ضاع صراخي بين تصفيقهم وزعيقهم وصوت فقهقاتهم العالية. سمعت أحدهم يقول:

- دعه يرقص على موسيقى البوب.

وصاح آخر:

- دعه يرقص على موسيقى الروك اند رول.

وصاح آخر:

- لا... لا... أريد أن يرقص على أنغام الجاز.

وقال آخر:

- أنا أعشق موسيقى الريف. أريد أن يرقص على

أنغامها.

أجابهم السيد هوفر:

- سوف أجعله يرقص على جميع الأنغام والأغاني

والموسيقى التي ترغبونها. لقد أعددت مجموعة متكاملة من

طلباتكم. كنت متوقفاً حدوث هذا الأمر. والآن ارقص على أنغام موسيقى الستينيات. بدأ بتشغيل جهاز الموسيقى والكهرباء في الوقت نفسه، صوت الموسيقى يعلو ويشد معها شدة سريان التيار في جسدي. شعرت بجسدي ينتفض بحركات لا إرادية. ارتفع إلى الأعلى ثم إلى الأسفل، ترتفع يدي اليمنى وتنخفض اليسرى أو العكس وكذلك قدمي تتحركان للأعلى وللأسفل بالتناوب السريع ومع حركة يدي. سمعت أصواتاً عالية تصرخ:

- نريد الآن أن تدير موسيقى لنراه يرقص.

- نعم... نعم... سوف أديرها لكم الآن.

بدأت الموسيقى تصدح عالياً وأخذت معها جميع الجدران ترتجف. صدى الموسيقى يرتد إلى أذني. أشعر بذبذبات الموسيقى الصاخبة تخترق كل خلية في جسدي، يصاحبها شدة التيار الكهربائي الذي يسري في كل أنحاء جسدي. وبدون وعي، بدأت بالقفز عالياً من شدة التيار والألم. جميع الحركات الإرادية واللاإرادية بدأت تعمل بدون انتظام. لم أسمع إلا تصفيقاً من حولي وصفيرهم وصراخهم، الكل يطلب أن أرقص كما يحلو له. بدأت لم أعد أحتمل الألم الناتج عن اتحاد صوت الموسيقى الصاخب وحدة التيار الكهربائي. لم أستطع أن أحافظ على توازني على سطح الطاولة الصغيرة. سقطت على الأرض ولم أصح إلا وأنا مقيد في قفصي مرة أخرى.



-4-

مرت بضعة أسابيع وأنا لا أستطيع المحافظة على توازني وإن حاولت فبصعوبة كبيرة. وأخذت الأيام تمر رتيبة كئيبة. لم أعد أهتم بأيام الأسبوع أو حتى بتواريخها. درجة الحرارة مرتفعة، والرطوبة عالية إلى حد لا يطاق. حبيبات العرق تخرج من كل مسامات جسمي. بينما كنت منشغلاً بالتفكير بتجفيف عرقي، اقترب من قفصي أحد الأشخاص. دنا مني وقال:

- هل أنت السيد كريم؟

- نعم أنا كريم بنفسه.

- أنا ريف سترومان، من شركة الأخوين غانومي

للإنتاج السينمائي.

- هل تريد أن تنتج فيلماً عن المعتقلين هنا؟

- لا...أبداً... ليس هذا الغرض من وجودي هنا. عبارة

قالها وهو يمسح العرق المتصبب على رقبتة بمنديله الأبيض.

- لا توجد لي أي اهتمامات سينمائية. ولا شأن لي

بالسينما؟

- أعرف أنه لا شأن لك بالسينما. أريد أن أخبرك أنني

كنت أقوم بالإعداد لإنتاج عمل سينمائي ضخم، مقتبس من

فيلم "كينغ كونغ". ربما سمعت عن الإصدارات السابقة من هذه السلسلة.

- أنا لم أسمع بهذا الفيلم، ولست مغرمًا بالأفلام السينمائية أصلاً.  
- هل تشاهد الأفلام السينمائية أو التي تعرض على شاشة التلفزيون؟

- بعض الأحيان كنت أشاهد أفلام الغرب الأمريكي، رعاة البقر، دون اهتمام بذلك. لقد كان رعاة البقر هؤلاء يبيدون رجال قبائل الهنود الحمر ونساءهم وأطفالهم. إنها مناظر كانت تثير الاشمئزاز في نفسي، وخاصة عند سلخ فروة رؤوس الهنود المساكين. أما هذا النوع من الأفلام التي ذكرتها فلا تهمني على الإطلاق، ولا أعرف عنها شيئاً.

- إن من أفضل أفلامي عندما كنت صغيراً فيلم "كينغ كونغ". لقد شاهدت النسخة الأصلية التي أنتجت للسينما عام 1933، وكنت في التاسعة من عمري، وفي عام 1976 شاهدت الفيلم مرة أخرى بعد أن أعيد اقتباسه ثانية.

- أما أنا فلا تهمني السينما ولا نوعية الأفلام التي تعشقها يا سيد سترومان.

- إنه من الأفلام الكلاسيكية التي دخلت التاريخ العالمي السينمائي. كان الغوريلا كونغ يسكن بين برجين شاهقين في أعماق غابات أفريقيا. تم اصطياده بواسطة قذفه بحقنة من المخدر، ووضعوه في قفص، بعد ذلك تم شحنه إلى هنا. مثلك تماماً يا سيد كريم، مع الفارق بأنه ذهب إلى مدينة نيويورك. حاول الهروب من قفصه، ربما كما تحاول أنت.

نجح في الفرار من قفصه، وهام على وجهه في مدينة نيويورك. أتعرف إلى أين ذهب يا سيد كريم؟

- ومن أين لي أن أعرف؟! قلت لك بأني لا أهتم بهذه النوعية من الأفلام.

- لقد ذهب إلى البرجين، إنهما يذكرانه بموطنه. أنت وجماعتك قمتم بتدمير البرجين. قضيتم على كل أحلامي وطموحاتي بإنتاج هذا الفيلم، الذي أعددت له ميزانية ضخمة تبلغ مائة وخمسين مليون دولار. لقد قمت بتحديد الطاقم الفني على أمل أن يبدأ التصوير في شهر تشرين الأول من عام 2001. كنت أعول على هذا الفيلم لأبني شهرتي. كنت أحلم بأن يكون إنتاج هذا الفيلم الخطوة الأولى على طريق المجد. فجأة يختفي البرجان من الوجود! هكذا، وبدون مقدمات أصبنا أثراً بعد عين! هذا غير ممكن يا سيد كريم. حتى عملي في الخدع السينمائية، فقد كان ضرباً من الخيال أن أقوم بتدميرهما. ولكنها الحقيقة المرّة. حقيقة أن البرجين لم يعودا موجودين، وهكذا أصبحت الحقيقة أعظم من الخيال. أنا لا تهمني السياسة، كلها خداع ونفاق. ولا يهمني رجال السياسة. كل ما يهمني هو من الذي قام بهذا العمل المروع؟

- وما علاقتي أنا بأفلامك وأمجادك يا سيد سترومان؟ لا علاقة لي بتدمير البرجين أو غيرهما.

- أخبرني أنت يا سيد كريم، من أين أحضر لكونغ برجين في مدينة نيويورك؟ إنني أشعر بالمرارة والحسرة لهذا الغوريلا المسكين، الذي أصبح شريداً ويعاني الوحدة. إن

حالته النفسية في تدهور شديد. وقلت شهيته للأكل، ولم يعد يشعر بالعاطفة نحو المخلوقات الأخرى.

- لماذا لا تشعر بالمرارة والألم نحوي، ونحو جميع المحتجزين في أقفاصهم الذين تراهم أمامك بلا ذنب؟ كيف تشعر بالحسرة والمرارة والأسى على الغوريلا؟ ولا تشعر بأي عطف علينا؟ أو حتى النظر إلينا كمخلوقات بشرية! لماذا لا تنتج فيلماً عن معاناتنا هنا في خليج غوانتنامو؟ إن قردك كونغ يستحوذ على كل تفكيرك، وأنا وغيري من حولي كما ترى في أقفاصنا، لا مغيث لنا ولا نصير. انظر إلى ذلك السجين المسكين ماذا يفعل؟ إنه يلبي نداء الطبيعة في العراء، أمام الجميع، لا خيار عنده. ربما لو كان قردك كونغ لخجل وتوارى عن الناس حتى لا ترى عورته.

- نحن لا نراكم سوى نفايات بشرية يجب التخلص منها. وليس أكثر من ذلك؟! هناك بعض النفايات يمكن إعادة تدويرها واستخدامها، أما أنتم فلا. نفايات تسبب التلوث لو بقيت، نفايات العولمة، لذلك يجب مسحها من الوجود، كما فعلتم بالبرجين. لقد فعلتم شيئاً لم يسبقكم أحد إليه، الإطاحة بالبرجين. كل ليلة أشاهد النسخة القديمة للفلم، وأرى البرجين منتصبين كالطود، وعندما أصحو أجد البرجين ممسوحين من الوجود. أخبرني فقط من كان وراء تدميرهما؟ إن لم يكن من أجلي كمنتج سينمائي، فمن أجل المسكين الغوريلا كونغ.

- قلت لك لا أعرف شيئاً. لقد قلتها بعظمة لسانك إننا مجرد نفايات بشرية. هل تستطيع النفايات البشرية التخطيط والقيام بهذا العمل الضخم؟ النفايات البشرية محدودة التفكير،

ضيقة الأفق، قصيرة الإدراك، أحلامها بسيطة، لا تتعدى ملء البطن وإفراغه.

- ربما ما ذكرته صحيح، ولكن يجب أن يكون لها قائد من نتاج العولمة، يحركها كما يشاء، تسبح بحمده وتشكر نعمه وتأتمر بأمره، وتنفذ دون اعتراض. نعم هذا ما أريده. من هو هذا القائد؟ حتى أستطيع أن أذهب إليه وأقاضيته، وأطلب منه تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بي.

- قلت لك لا أعرف، ولا شيء جديد أستطيع أن أساعدك به. أنا تاجر موز فحسب. ربما تساعدني بأن تشتري مني موزاً للغوريلا كونغ، لو كنت طليقاً.

- حسناً، لقد قمت بشراء هذه الرافعات من أجل تصوير الفيلم. بعد أن تلاشت أحلامي بإنتاج الفيلم، سنقوم سوية بالتمرين على لعبة الكينغ كونغ. ربما تتذكر بعدها من قام بالتخطيط والتنفيذ لتدمير البرجين.

جلس خلف مقود رافعة ذات ذراع طويلة، تبلغ حوالي خمسين متراً. انقضت الرافعة بأسنانها الفولاذية على قفصي. قامت برفعه تدريجياً إلى الأعلى. نظرت إلى الأسفل، فوجدت الأشياء متناهية في الصغر، وكلما ارتفعت عالياً أصبحت صغيرة أكثر فأكثر. نظرت إلى السيد سترومان، وبالكاد كنت أراه داخل قمرة قيادة الرافعة. فشعرت بأنني كبير وعظيم وأنا أتأرجح في الأعلى. بدأ يحرك ذراع الرافعة نحو اليمين ونحو الشمال، وأنا أتمايل في قفصي مثل ديك مقصوص الجناحين. تم تسليط ضوء ساطع من الكاشفات نحوي، شعرت بحرارة شديدة، وقمت بوضع يدي على عيني لأحميهما من شدة الضوء، بدأت أتحرك بشكل

دائري، بدأت الحركات بطيئة، ثم ازدادت شدة و عنفاً، وأخذ الضوء يزداد وهجاً. شعرت بدوار وغثيان شديدين. بدأت ذراع الرافعة تهبط إلى الأسفل ببطء، عندما اقترب قفصي من الأرض ارتفع فجأة. بدأت قوة الدوران تشتد وعاود الكرة مرة أخرى، يرفعها إلى الأعلى، ثم الدوران بسرعة فائقة والنزول إلى الأسفل ثم الدوران حول المحور بزاوية ثلاثمائة وستين درجة.

لم أحتمل الغثيان، تقيأت كل ما في جوفي. وفجأة وجدت نفسي أرتطم بالأرض بشدة، شعرت معها بأن أضلعي انطبق بعضها على بعض. اقترب نحوي، وقال:

- كيف كان شعورك وأنت تتأرجح في الأعلى؟  
- لم أشعر إلا برغبة في التقيؤ، وقد فعلت.  
- ألم تشعر بكونغ، كيف يتأرجح باحثاً عن برجيه، ليحتمي بهما؟

- لا، لم أفكر بكونغ على الإطلاق.  
- حسناً، ولماذا لا تفكر بنفسك؟ أخبرني من كان وراء تدمير البرجين؟ وسوف أكون شاهداً معك. كل المحققين هنا هم أصدقائي، سأقوم بإقناعهم بأنك لست خطراً، سأكتب في تقريرتي أنك تعاونت معي. سوف يتم تصنيفك شخصاً متعاوناً، وأنت لست من المحاربين الأعداء. ما زلت أشعر بالحزن لهذا الغوريلا المسكين.

- لماذا تشعر بالحزن للغوريلا؟ ولا تشعر بأي حزن نحوي أو نحو زملائي المحتجزين؟ هل للغوريلا أهمية أكثر من إنسانيتنا؟

- لا تتحدث عن الإنسانية، فقط أخبرني من قام بالتخطيط لتدمير البرجين؟
- قلت لك، لا أعلم شيئاً، أنا تاجر موز فقط.
- ومن يعلم؟
- ربي هو يعلم.
- أنا مسافر لقضاء عيد الشكر مع أسرتي، وعندما أعود سوف نرى من يعلم، أنا أم ربك؟

\*\*\*

- بعد ذهاب السيد سترومان، اقترب مني أحد الجنود الذين يقومون بحراستي، قصير القامة ممثلي الجسم، ملامحه تدل على أنه من جزر الكاريبي، وقال بصوت خافت:
- لا تصدق ما قاله السيد سترومان لك بأنه منتج سينمائي، إنه من كبار محققي وكالة المخابرات المركزية. أتذكره جيداً، لقد قام بالتحقيق مع مجموعة من الأحرار، مناهضة للولايات المتحدة، عندما قاموا بغزو بلادي.
  - ومن أي بلاد أنت؟
  - أنا من غرينادا، لقد فعلوا العجائب بنا.
  - لماذا لا تذهب وتقضي عيد الشكر مع أسرتك، كما يفعل سترومان وأعدك بأنني لن أهرب؟
  - لا أحب هذا النوع من الأعياد. عندما جاء الغزاة من مختلف بقاع الأرض إلى أمريكا، كانوا يسرقون الديك الرومي من سكان البلاد الأصليين، أو الذين أسموهم الهنود الحمر. ومن أجل التكفير عن هذه السرقات، يدعون جيرانهم

من الهنود الحمر لتناول طعام الغداء على مأدبة مكونة من  
الديك الرومي المسروق.



أشعر اليوم بأنني في أحسن حال، أخبرني صديقي  
الحارس بأن السيد سترومان لقي حتفه في ميتة شنيعة. بعد  
أن تناول طعام الغداء في يوم عيد الشكر، قام بتشغيل قاربه  
في نزهة في عرض نهر أوهايو. توقف محرك القارب عن  
العمل، حاول تشغيله فلم يفلح. فك مروحة المحرك ومن ثم  
أعادها إلى موضعها، ولم يحكم إثباتها بالشكل الصحيح.  
وعندما حاول تشغيل المحرك مرة أخرى، طارت المروحة  
من مكانها وضربت شفراتها عنقه وجزءاً من واجهة وجهه  
اليسرى. تم إسعافه، ولكن فارق الحياة قبل وصوله  
المستشفى. قلت في نفسي:

- إن ربي أقوى. إن ربي عليم حكيم.



-5-

بعد مرور أسبوع على حادثة وفاة السيد سترومان، جاء إلى قفصي شخص في هندام أنيق، حليق الشاربين، في بداية الخمسينات من عمره. وقف أمامي وقال:  
لا بد من أنك السيد كريم!  
- نعم، كريم شمس الدين.  
- أنا اسمي إسحق زائيفي، من مكتب تحقيقات داسوم للعمليات الخاصة السرية.

- يبدو أنني المعتقل المفضل لديكم في هذا المعسكر. هناك الكثير من المعتقلين، لماذا لا تذهبون إليهم؟
- نحن نعرف ما نقوم به. نعرف عملنا جيداً. على أي حال لا أريد أن أسألك الأسئلة الروتينية، ما اسمك، وعمرك...؟ أريد أن تخبرني كيف تم التخطيط لهدم البرجين؟ ومن قام بالتنفيذ؟
- كما قلت في السابق ليس عندي علم أو أدنى معرفة بهذه الأمور. قلت لكم إنني تاجر موز وحسب.
- هل تعتقد بأنه تم التخطيط في أفغانستان، أو من قبل خلاياكم المنتشرة في أوروبا؟ أو ربما في أمريكا؟
- لا أعتقد بأن التخطيط تم في هذه البلدان التي ذكرت.
- ممتاز... رائع... لقد أمسكنا بطرف الخيط.
- وأين- تعتقد- تم التخطيط؟
- أنت أعلم مني بهذا الشأن!
- لو أنني أعلم شيئاً، لما أتيت إلى هنا، ولما جلست أمامك لأنترع اعترافاً منك، أو على الأقل لالتقاط ما تدلي به من معلومات عن هذه الهجمات.
- يعجبني الخاتم الذي تلبسه يا سيد زائفي.
- إنه هدية من صديق، وليس هذا موضوعنا بأي حال.
- أنا أعرف من أهداك هذا الخاتم.
- ماذا تقول أيها الأخرق؟
- لقد رأيت صورك مع صديق لي، ربما هو صديقنا المشترك. أخبرني أنه أهداك خاتماً من الألماس. لقد رأيت

صورته. إنه الخاتم نفسه. إن اسمك وأوصافك يا سيدي،  
تنطبق على المستثمر الذي أنشأ مصنعاً لتعليب الأسماك في  
موريتانيا، ألم تكن شريكاً للسيد حيدر ولد معوض؟  
صمت المحقق فجأة، وزاد احمرار وجهه، وبالكاد  
استطاع أن يبتلع ريقه. نظر إليّ مطولاً دون أن ينبس ببنت  
شفه، وقال:

- سوف أتابع التحقيق معك لاحقاً.

\*\*\*

قضيت ليلة مزعجة، زارتنى خلالها آلاف الكوابيس.  
فجأة أيقظني أحد الجنود المكلفين بتعذيباً. واقتادني إلى  
إحدى دورات المياه، وهناك وجدت عموداً مثبتاً فوقه ما  
يشبه " الدوش ". ظننت أنني سأستحم، ربطني الجندي إلى  
هذا العمود وثبت رقبتي ويديّ وقدمي، ثم بدأت أحس  
بقطرات من الماء البارد، تنزل على منتصف رأسي. كل  
دقيقة قطرة. ما هذا؟!!

هل هو نوع جديد من أنواع التعذيب؟! لم استطع  
النظر إلى الأعلى لأرى مصدر الماء. بدأت أسلي نفسي في  
البداية في متابعة القطرات التي تهبط تماماً في منتصف  
رأسي. قمت بمحاولة بتحريك رأسي إلى أي من الاتجاهات  
حتى أوزع قطرات الماء على جميع أنحاء جسدي إلا أنني  
فشلت. وظلت قطرات الماء تسقط باستمرار على منتصف  
رأسي وعلى مدار كل دقيقة. مضى اليوم الأول ثم الثاني.  
شعرت بعصبية ومع حلول اليوم الثالث زادت حدة عصبيتي.  
بدأ الجهاز العصبي المركزي بالاستنفار. بدأ هيجانه يعلو

تدريجياً. أين تسقط قطرة الماء التالية؟ حاولت أن أحرك جسدي في جميع الاتجاهات. لعلها تسقط على كتفي أو على أي جزء آخر من جسمي. لكن لا سبيل إلى ذلك. على منتصف رأسي مباشرة. مرّ أسبوع وأنا على هذه الحالة من قلة نوم وعصبية مفرطة. توقفت قطرات الماء دون سابق إنذار وفي اليوم التالي عاد المحقق اسحق زائفي، حاملاً تحت إبطه كومة من الملفات، وبادرني السؤال؟

- كيف قضيت الأسبوع؟

- وماذا تنتظر من سجين أن يمضي أسبوعاً، أو شهراً؟ الأمران سيان، أنت الجلاد وأنا الضحية.

- أنا لست جلاداً، وأنت صديق لصديقي حيدر. لقد جنينا الكثير من الأرباح من تجارة السمك سوية، إلا أنه الغبي الذي بذر أمواله في مساعدة المجاهدين.

- ولا تنس بأنك كنت أيضاً تتبرع لهم، هكذا أخبرني.

- هذا صحيح، ولكن تصرفي هذا كان من قبيل التسويق لمنتجاتنا. هذه هي التجارة.

- أنا أيضاً كنت أتبرع بكثير من الموز للمجاهدين.

لكن الآن عرفت بأن تبرعكم للمجاهدين لم يكن وراءه نوايا حسنة.

- لقد تألمت كثيراً لمقتل حيدر. والآن دعنا نعود إلى

موضوعنا، كيف تم التخطيط لتنفيذ هذه العمليات وأين؟

- هل تعتقد يا سيدي بأن أشخاصاً مثلي ومثلهم،

قابعين في كهوف وعازفين عن الحياة الدنيا، عندهم المقدرة

على تنفيذ مثل هذه العمليات الضخمة؟ إن إمكاناتهم

محدودة. لا أعرف لماذا تصر أنت والمحققون الآخرون على سؤال واحد. من قام بالتخطيط والتنفيذ لهدم البرجين؟! - جميع هذه الأمور لا تهمني بتاتا. ربما لا تعلم بأن مكتبي يقع في الطابق العشرين من البرج. لقد وضعت فيه كل مدخرات شركتي. كنت أحول أموالي إلى سبائك من الذهب. أنا الآن بلا مكتب وبلا ذهب وبلا رأس مال. لقد انصهر الذهب ولم أعرف سبيلاً لاستعادته. - عجيب أمرك!! لماذا لم تكن في مكتبك أثناء الهجوم!؟

- كنت أعاني من أنفلونزا حادة في ذلك اليوم، ولم أستطع الذهاب إلى مكتبي.

- لقد حيرني أمرك، هل أنت تاجر أم محقق؟  
- أنا الآن محقق، ولكن ليس من قبل...، أنا أعمل لصالح مكتب تحقيقات داسوم للعمليات الخاصة السرية، كما سبق وأن أخبرتك، وأريد أن تساعدني، حتى يكون لي السبق في معرفة خفايا الهجوم.

- كنت أفترش الأرض وألتحف السماء، وأشاهد شظايا قنابلكم الجهنمية تشطر أجساد المجاهدين. كنت أبحث عن حيدر. قالوا لي أنني سأجده في مزار الشريف. كنت أعلم بأنها مخاطرة أن أذهب إلى هناك. كنت أعرف بأنه لن يستسلم. عندها تولدت لدي رغبة جامحة في أن أراه. ذهبت إلى مزار الشريف. رأيته عن بعد ابتسم لي ولم أسمع ما قاله. فجأة مزقت إحدى قنابلكم العنقودية جسده الأسمر وحولته إلى قطع. بكيت بحرقة. كانت هذه أول مرة في حياتي أبكي بها بحرقة. جميع ما تملك يا سيد زائفي لا تساوي عندي

دمعة ذرفتها على حيدر. لقد كنت أمامه عندما مات. وأين كنت أنت؟

- أنا في ورطة، يا سيد كريم، أنا لا أملك مالاً، لقد خسرت كل شيء، وإذا أخبرتني من الفاعل، سوف أقاضيه واسترد جميع مدخراتي التي ضاعت في البرج.

- لقد أفنيت زهرة شبابي وأنا أبيع الموز للمجاهدين، ولكن هل تدري كم من أوطان سلبت؟! وأعراض انتهكت؟! وبلاد أحرقت؟! و.... لا مغيث لهم، ولا أحد يسمع صوتهم، ولا بواكي عليهم! بربك، كم حفنة من الدولارات يستحق ما ذكرت لك؟ والآن أسألك كيف تزنون البشر؟!

- دعنا في دائرة الحدث يا كريم. لا أريد خيوط نسيجي أن تتشابك، لا أريد تعقيد الأمور أكثر مما هي عليه، لقد كنت أميراً لإحدى الخلايا النشطة، ومن القلائل الذين كانوا يجتمعون بأمير المجاهدين. أخبرني عنهم يا كريم!

- أنا بائع موز، ولا أعرف شيئاً غير تجارة الموز.  
- انظر إلى كومة الملفات التي معي، لقد وصلتني بالبريد المستعجل، وفيها ما يدينك، والآن أخبرني ماذا تعرف؟

- لقد سمعت أحدهم يقول بأن هناك جهة ما، قامت بعملية تعطيل جهاز الكمبيوتر في قمرة قيادة الطائرات، أصبح الجهاز نصف أعمى ونصف أصم.

- هذا رائع أكمل حديثك يا كريم.  
- نعم، هذا ما قاله، وقال بأن هناك شركة واحدة صانعة للنانوتكنولوجي، تستطيع أن تتحكم بجهاز الحاسوب عن بعد، وتوجيه الطائرة نحو الهدف الذي يريدونه.

- إذاً، تعتقد بأن هناك أشخاصاً منكم قاموا بمثل هذا العمل، قاموا بشل الحاسوب، وجعلوه أصم أعمى. ولكن من الذي قال ذلك؟

- نعم، هذا ما سمعته. هذا ما قاله أحد المجاهدين عندما كنا في الحصار مع ثمانية من المجاهدين، وذلك قبيل قصفكم موقعهم. بعدما رأيت مقتل حيدر، كان أقرب مكان لي هو الملجأ الذي يتحصنون فيه. وقال بأن هناك شركات محددة في العالم تنتج مثل هذه النانوتكنولوجي التي يمكن التحكم بها. ربما مكتبكم يستطيع أن يحدد هذه الشركات.

- ماذا تقول يا رجل، هل جننت؟

- وددت لو أنني فعلاً مجنون. لقد قتل هذا الشخص أثناء قصفكم لنا. لم أره هنا.

طلب زائفي من مساعده أن يحضر الكلب. اقترب مني وهو يجر الكلب، فك وثاقي من يدي وبقيت قدمي مربوطة في الأصفاد. طلب مني أن أتجرد من ملابسي، رفضت ذلك بشدة، وكرر طلبه بلهجة أمرّة، فيها كثير من الجلافة والصرامة، ورغم ذلك رفضت بشدة أيضاً. فتح باب قفصي وأطلق صافرته. انطلق الكلب نحوي وبدأ يمزق ملابسي الخارجية وأنا أصرخ ولا من مجيب، تمزقت ملابسي جميعها وحتى الداخلية، وأنا أحاول ستر عورتي بيدي. أحضر ستة من المعتقلين عراة مثلي، وتم تكويمنا على بعضنا في قفصي الذي لا تتجاوز مساحته متراً مربعاً واحداً. حضر العديد من الأشخاص منهم المحققون وغيرهم. كل واحد منهم كان يحمل زجاجة ويسكي، بدأوا يسكبونها على أجسادنا. الكل يصرخ، وأنا أصرخ بأن هذا لا يجوز، هذا

حرام، لا أحب الويسكي. وبدأ جميعنا يصرخ بأعلى صوته، هذا لا يجوز... هذا حرام... هذا غير معقول... لماذا تسكبونه على أجسادنا؟! لماذا لا تشربونه؟! ضاعت صرخاتنا بين صخب ضحكاتهم العالية.

أمر زائفي بإحضار المزيد من زجاجات الويسكي. أخذوا يشربون منها ويسكبون الباقي على أجسادنا، حتى غدت أجسادنا مبللة تماماً وتقطر سائلاً مسكراً صافياً. فجأة انطلقت نحونا مجموعة من الكلاب، وبدأت تلحق الويسكي عن أجسادنا. نصرخ ولا مغيث. ضاعت صرخاتنا بين نباح الكلاب ونهش أجسادنا، وبين ضحكاتهم العالية المتعالية. لعقت الكلاب كل جزء من أجسادنا، من أخمص القدمين وحتى الرأس. بدأ الويسكي يأخذ مفعوله، بدأت الكلاب تترنج. أحضر أحدهم خرطوم مياه، وقام بضخ المياه نحونا، الكل منّا يوارى عورته بيديه. وبدأت الصراخ أين هي حقوقنا؟! أين هي كرامتنا؟! أين هي إنسانيتنا؟! سلط خرطوم الماء على فمي الفاجر، وكدت أختنق من شدة المياه التي دخلت جوفي من فمي ومن أنفي. نظرت إلى كوم اللحم المتراكم حولي، ولم أتمالك نفسي من البكاء.



-6-

كان يوماً شديداً الحرارة، وبالكاد يرى قرص الشمس الذي اختفى وراء الرطوبة العالية في الجو. كنت أشعر باختناق وبالكاد أتنفس في مثل هذا الطقس. وقف أمام قفصي شخص أنيق المظهر، طويل القامة، نحيف الجسم، ذو ملامح حادة. أخبرني أنه من وكالة الفضاء الأمريكية (الناسا) وقال أن اسمه جيرم ماكديس. بدأ حديثه عن هبوط أول إنسان على سطح القمر، وأن هناك تشابهاً كبيراً بين التضاريس الجغرافية لأفغانستان وبين تضاريس القمر، وبالذات الصخور النارية والمحروقة. وبكل برود قال إنه لا يهتم بالسياسة مطلقاً، ولا حتى بالقضايا التي تمسها. وإنما جل اهتمامه في مجال علم الفضاء.

- يا سيد ماكديس، أنا لا أعرف شيئاً عن الفضاء. عندما وطئت أقدامكم سطح القمر، كنت أحبو أمام بيتنا المبني من الطين.

- كل ما أريده منك أن تخبرني عن تضاريسها الصعبة. أريد أن أعرف أين توجد الكهوف؟! وأين توجد ينابيع المياه؟! لقد سمعت بأن هناك الكثير من ينابيع المياه التي تخرج من باطن الكهوف. أريد معرفة مواقعها، فقط لا غير. - أنا لا أعرف شيئاً عما تتحدث يا سيد ماكديس، لقد أخبرت المحققين من قبلك بأنني تاجر موز، أعقد صفقاتي وأسلمها واقبض ثمنها، ليس لي أيّ علاقة بأيّ أمور أخرى. - أنا لست محققاً يا سيد كريم. أنا عالم في الجغرافيا، وكل مبتغاي أن أقارن بين صخور القمر وصخور أفغانستان.

- كل نشاطي التجاري كان منحصراً في المدن، ليس لي أي اهتمامات أخرى لا في الجغرافيا ولا في السياسة. أخبرت المحققين الذين سبقوك عن كل نشاطاتي واهتماماتي. بدأت الشمس تلفح وجهي والعرق يتصبب من جبیني ليغطي رقبتني وسائر جسدي. أخرج الحاسوب المحمول من الحقيبة السوداء التي كان يحملها. وضع الحاسوب على ركبتيه. طلب مني أن أقرب من شاشة الحاسوب. اقتربت من الشاشة. دنا مني وقال:

- انظر جيداً إلى هذه الصور، وبالذات الجبال والصخور التي فيها. حاول أن تركز عليها. أكثر الصور كانت لسلاسل من الجبال والصخور وبعضها من رحلات ابولو التي هبطت على القمر. كما تعلم بأننا غزونا الفضاء،

ونريد فقط تسليط الأقمار الاصطناعية على منطقة محددة  
ودراسة جغرافيتها كاملة.

- بما أنكم تملكون الفضاء، ماذا تريدون من شخص  
مثلي؟ يمكنكم تسليط أقماركم كما تشاؤون على أي بقعة من  
الأرض تختارونها.

- ولكن أريد أن تساعدني بتحديد المنطقة لنكسب  
الوقت، كما كسبنا سباق السيطرة على الفضاء ووضعنا أول  
إنسان على سطح القمر قبل الاتحاد السوفيتي الراحل.

- أنا أشك بذلك، أشك في وطء روادكم سطح القمر.  
إنها أكبر خدعة قمتم بها في القرن العشرين. أوهمت العالم  
بأنكم وضعتم أول إنسان على سطح القمر. كذبة كبيرة، تمت  
حياكتها بدقة متناهية. وكذبة القرن الواحد والعشرين أن  
مجموعة تسكن في كهوف أفغانستان قامت بتدمير برج  
نيويورك. بالمناسبة لقد تم تدمير جزء من مبنى البنتاغون  
ولا أحد من المحققين ذكره، أو وجه اتهاماً لي أو لغيري! أو  
حتى تساؤل عنه فحسب! لماذا كل التركيز على اليرجين؟!

- ماذا تقول يا سيد كريم، هل تشك بنزول الإنسان على  
سطح القمر؟!!!

- نعم... نعم... هذا ما أقوله... وددت لو أستطيع في هذه  
اللحظة أن أضع يدي وراء رأسي، احنيه إلى الخلف قليلاً،  
وأضع ساقاً على ساق. منذ أن أعلنتم بأن مركبة ابوللو 11  
حطت على سطح القمر في عام 1968 ونزول رجلي  
الفضاء عليه، والحديث في تراجع عن القمر والهبوط عليه،  
أو حتى المحاولة لإقامة محطة دائمة على سطحه. أعتقد أن  
ما قمتم به لم يكن إلا فلما من إنتاج الناس، تم إخراجه بدقة

متناهية. انظر إلى الصور التي معك، العلم يخفق من تأثير  
الهواء. ظلال الرواد والحجارة غير متناسبة مع بعضها.  
- لا يمكن أن اصدق ما تقوله، أن تثير الشكوك حول  
هذه الرحلة.

- أريد أن أسألك يا سيدي، لماذا اعتزل رواد الفضاء  
الحياة العلمية والعملية؟! ولماذا يمنعون من التحدث والكلام  
عن تجربتهم؟! وإن تحدثوا كان حديثهم تحت حماية ومراقبة  
شديتين. ولماذا لم يختلطوا بالناس مثل بقية خلق الله؟!  
- لم يمنعهم أحد ولهم الحرية في أن يتكلموا، وما تقوله  
يا سيد كريم هو محض خرافات معشعشة داخلك وداخل  
رؤوس أمثالك.

- إن كل ما تقولونه هو الخرافات. بداية من الحرية  
ومروراً بالنزول على سطح القمر وانتهاء بتدمير البرجين  
والقول بأنه عمل من صنيعنا.

- قد أرسلنا الكثير من المسابير إلى كواكب أخرى أبعد  
من القمر، مثل كوكب اورينوس والمريخ.

- ولماذا مسابيركم لا تحدد ما تطلبه مني؟ ترسلونها  
إلى كل هذه الكواكب ولا ترسلونها إلى كوكب الأرض؟  
- أنا مهتم بالجغرافيا فقط، وأريد أن يكون لي السبق  
بأن أعرف أماكن وجودهم، ومواقع الكهوف من خلال  
التحليل للصور الطبوغرافية الجوية.

- وأنا مهتم بأن التقي برائد الفضاء الذي وضع قدمه  
على سطح القمر.

- يبدو أننا لن نتفق، كل ما أريده منك هو معلومة  
صغيرة، ولكنها تعني لي الشيء الكثير. أريد أن أذكرك

بالعلماء الذين أغنوا الحضارة وساهموا برفاهية الإنسان وأنجبتهم هذه البلاد.

- وأنا لا أطلب منك الكثير أيضاً. وأريد أن أذكرك يا سيد ماكديس بأني تاجر موز. أنا فخور جداً بأني تاجر موز. ربما لا تعلم لماذا أنا فخور؟ سأخبرك. إن كلمة بنانا التي تطلقونها على الموز هي كلمة عربية، مأخوذة من البنان أي الأصبع وأشرت له بإصبعي عالية. أنا سعيد جداً لأنكم والعالم يستعمل هذه الكلمة. يكفيني ذلك شرفاً. أقول لك بأني تاجر موز ليس إلا.

- إن كلامك يثير دهشتي. عندي إحساس بأنك أخطر معتقل في هذا المعسكر. أريدك أن تقوم برحلة صغيرة على متن المنطاد.

- هل نقوم بها سوياً؟

- لا... وحدك... أنا سأكون هنا في برج المراقبة، يجب أن تكون مستعداً للانطلاق. يجب اختبار فرضية السقوط من الأعلى بالتحكم بالمنطاد بجهاز التحكم عن بعد.

تم وضعي في داخل المنطاد، وأنا مقيد اليدين والقدمين بأغلالي. شعرت وكأنني مثل الكلاب التي ترتاد الفضاء الخارجي في الرحلات المكوكية للمركبات الفضائية، والتي عادة ما تجرى عليها الاختبارات العلمية، ليتم تطبيقها، في حالة نجاحها، على البشر. جلست في المكان المخصص. وبدأ المنطاد يرتفع شيئاً فشيئاً، وأنا أرنو إلى السماء، وأرى أطرافها تلامس البحر لتكتسي لوناً أزرق خافتاً بين لون السماء ولون البحر. وفجأة بدأ المنطاد يهوي إلى الأسفل وبدأت أتدحرج مثل كرة صغيرة داخل كرة كبيرة، وتمسكت

بقيد قدمي، ليرتطم المنطاد في البحر، ويتسبب بجرح في رأسي وآخر في باطن قدمي، لم أشعر بالألم في حينه. ولكنني شعرت بدوار وضيق في التنفس وألم فظيع بعد التقاطي من البحر.

- سألت المحقق، إن كانت الفرضية قد نجحت أم لا؟  
- لم تنجح. وما زلت معتقداً بأنكم وراء تدمير البرجين.  
- وما جدوى ما قمت به؟  
- عدها نوعاً من التسلية، لا أكثر.  
- ولكن كان من الممكن أن أموت من تسليتك هذه.  
- ومن يأبه بموتك أو بحياتك، الأمران سيان.



-7-

بينما كنت غارقاً في تفكيري العقيم في عصر أحد الأيام، حضر المحقق توماس هابيكونز وبصحبه فتاة جميلة، في منتصف الثلاثينيات من عمرها، بيضاء البشرة، شعرها أشقر قصير بالكاد يغطي رقبتها، صبوح الوجه، مدببة الأنف عيناها واسعتان. قدمها لي هابيكونز بأنها صحفية تعمل في صحيفة "ميامي جازيت". وقال إنها من أكبر المدافعين عن حقوق المهاجرين إلى الولايات المتحدة، وما أن سمعت

بوجود معتقلين في غوانتانامو حتى سارعت بالحضور لعمل  
تقرير صحفي لصالح صحيفتها. وتابع موجهاً حديثه للفتاة،  
هذا السيد كريم الذي أخبرتك عنه. ثم توجه إلي سائلاً بلهجة  
أرادها أن تكون بريئة، هل تعلم يا سيد كريم أي معجب  
بقيادتك لمجموعتك خلال مقاومة المجاهدين للجيش الروسي.  
كنت أود أن أعرف، لماذا لم تعد إلى موطنك بعد دحر  
القوات الروسية؟!

- وفيم يهتمك هذا الأمر؟

- حتى أقرأ حاضرك يجب أن أعرف ماضيك. بعد أن  
انتصر المجاهدون في حربهم ضد المد الشيوعي، بدأ الكثير  
منهم الرحيل والعودة إلى بلادهم. أنت لم تفعل ذلك.

- لقد قلت لكم بأنني تاجر موز.

- اسمع، إذا تعاونت معنا سننشئ لك أكبر شركة لتجارة  
الموز في العالم. يمكنك أن تبيع الموز لكل دول العالم، إن  
خبرتك في التجارة عالمية وعليك التوسع في تجارتك، هناك  
الكثير من الدول التي تزرع الموز، وهي تابعة لنا وتسمى  
دول الموز، سنفتح لك كل الأسواق التي تريدها، كن متعاوناً  
معنا.

- وماذا يضمن لي ذلك؟!

- أنا اضمن لك ذلك. أعطيك شرف الكلمة.

- أعطيتم شرف الكلمة من قبل لأشخاص كثير. ولا أريد  
أن ينتهي بي المطاف إلى أن أحرق نفسي أمام البيت  
الأبيض، كما فعل ذلك الشاب المسكين احتجاجاً على عدم  
التزامكم بشرف الكلمة.

- سنتنعم بالحرية والديمقراطية في اكبر دولة حرّة في العالم.

- وما سقف حريّتكم وما مستويات ديمقراطيّتكم؟  
- كبيرة جداً. أنا أستطيع أن أذهب إلى البيت الأبيض وأقف أمامه وأقول: إن سياستك يا ساكن هذا البيت لا تعجبني، وأنا لست راضياً عمّا تفعله.

- وأنا أستطيع أن أفف أما قصر الحاكم في موطني وأصرخ بأعلى صوتي: أنا أكره سياسة الساكن في البيت الأبيض.

- مفهومان مختلفان لمنطق الحرية والديمقراطية. ثم التفت إلى الصحفية وقال:

- على أي حال أريد أن اذهب الآن لإتمام بعض الأعمال. يمكنك إجراء التحقيق الصحفي الذي ترغبين معه أو مع غيره. أنا شخصياً أفضل أن تجري تحقيقك مع السيد كريم.



**-8-**

**56**

أنا يا سيد كريم صحفية واسمي ديبرا سوارد. ومهمتي هنا محددة تتعلق بإجراء تحقيق صحفيّ لحساب جريدتي. مهنتي صحفية، والصحافة هي عالمي. ألم تسمعهم يطلقون عليها السلطة الرابعة؟

- نعم، سمعت ذلك. ولا أعلم أنا ضحية أي سلطة، الأولى أو الثانية أو الثالثة أو جميعها معاً.

- جئت لأجري تحقيقاً عن معتقل غوانتانامو. أخبرني السيد هابيكونز بأنك أفضل شخص يمكن أن أجري معه مقابلة. أعتقد بأنه محق في ذلك. لقد أعجبتني كثيراً الحوار الذي دار بينكما. رغم أنك حبيس ولكن شعرت بأنك تكلمه بندية واضحة.

- والله يا سيدتي، كل من قابلني منكم يقول أشياء كثيرة في البداية ولكن يظهر أنه يكذب. جاء أحدهم وقال بأنه منتج سينمائي، وآخر من وكالة الفضاء وآخر من... والحقيقة كلهم محققون. أخشى أن تكوني واحدة منهم. إن كنت محققة قولي ذلك ودعك من مهنة الصحافة هذه.

- أعرف ذلك، وجميع تقارير المقابلات التي أجريت معك في حوزتي. أنا صحفية ولست محققة. يبدو أنك تكره المحققين.

- أعترف بأنني أكره كل المحققين، وبغض النظر عن أي مجموعة أو مؤسسة ينتمي إليها أحدهم. أشعر بأن المحقق رجل أحرق، تم غسل دماغه لدرجة أنه يظن أنه رجل خارق يستطيع الوصول إلى الحقائق التي تخدم أغراضه ومصالح أسياده. يظن أنه الوحيد على حق وأن نظريته في حل الأمور هي الصحيحة ويجب تطبيقها على كل الأشخاص الذين

يحقق معهم. كنت أظن أن المحقق هو خطوة على طريق العدالة التي تقود إلى الحرية لأن كل محقق يتشدد بالديمقراطية، ظانا أنني مصدقه، وأني سأعدّ الديمقراطية التي يلوح بها بساط الريح الذي أمتطيه لأحصل على حريتي. وما إن تمر لحظة قصيرة حتى يتحول المحقق إلى متسلط جاهل ويمارس سادية جهله على أشخاص بسطاء مثلي ومثل جميع المعتقلين الذين تربيهم في المعسكر. نحن بيئة خصبة للممارسات السادية على اختلاف ألوانها وأنواعها. كنت أصرخ ملء شدي، يا سيدتي، أريد محاكمة عادلة. أريد محامياً يدافع عني وعن حقوقي. أريد قضاءً نزيهاً يحكم ببراءتي. أريد وأريد....ماذا أريد؟ وكل ما أسمع به أنني لست على أرض أمريكية لأخضع لقوانينها ودستورها. أنا على أرض كوبية، مع أن كوبا ليس لها سيادة على هذا المربع الذي أنا أحد ساكنيه. الديمقراطية مثل الحرية لا يمنحان بل يؤخذان. أريد محاكمة ديمقراطية عادلة. أريد حرية. وحتماً سأنتزع حريتي من مخالف النسر الأمريكي.

- أنا هنا لمساعدتك على انتزاع حريتك، أنا مثلك أو من بأن الديمقراطية مثل الحرية، تؤخذ ولا تمنح. ليست هبة ولا عطية ولا منة من أحد. جئت هنا لأسمعك فقط. لا أريد أن أطرح عليك أي أسئلة. تحدث كما تشاء. وان كنت لا ترغب في الحديث فأنا أفهم ذلك.

شعرت بارتياح لوجودها. هذه المرة الأولى التي يأتي إلى قفصي شخص ما، ويقول أود أن أسمعك. جميع المحققين يرغبون في إبراز مهاراتهم في التحقيق. ربما من أجل

البحث عن شهرة أو ترقية أو مكافأة. منذ اعتقالي وأنا لم أتحدث إلى أي شخص. كنت أتحدث إلى نفسي حتى كرهتها. ربما هي فرصتي أن أتحدث إلى شخص ما. وعندها بدأت بكل ارتياح بسرد الفصل الذي يهمها من حياتي.

كنت في جيبوتي عندما بدأت طبول الحرب الأمريكية تفرع وتعلو. تم تحديد العدو رقم واحد بأنه موجود في الحلقة الأضعف في العالم، أفغانستان. الحرب قادمة لا محالة. ذهبت إلى الصلاة من يوم الجمعة إلى مسجد الحي الذي أسكن فيه. كنت أعلل نفسي بأن خطبة الجمعة ستكون خطبة نارية قوية، تتجلجل لها أسوار المدينة وتعلو أمواج البحر من هول القول. خطبة تناسب الحدث حول الاستعداد بالهجوم المحتمل على بلاد المستضعفين. دخلت المسجد صليت ركعتين تحية المسجد، وبدأ الخطيب يتحدث عن إطاعة الحاكم، بصفته ولي الأمر، وعدم عصيان أوامره لأنه هو الوحيد القادر على حماية خلق الله من الشر المحقق بهم والعارف بالخير لصلاحهم. شعرت بملل وقلت في نفسي ربما هناك أوامر حرب قوية ولا يريدون الإفصاح عنها. انتهت الخطبة ولا شيء يذكر، سوى طاعة الحاكم وعدم عصيان أوامره.

في الجمعة التالية قررت أن أذهب إلى مسجد بعيد عن الحي الذي اسكن فيه. دلفت إلى المسجد، وبدأ كلام الخطيب فاتراً لا حياة فيه. تحدثت عن أحكام المسح على الخفين وكيفيته وسننه. وفي الجمعة الأخرى ذهبت إلى مسجد آخر. كانت الخطبة عن الزمان والقدر والفلسفة الأزلية لهذا المفهوم. كل ما يحصل للإنسان هو مقدر له. وكل ما يحصل

للأمة هو مقدر لها، هذا هو قدرها المكتوب لها. فلا تلعنوا الزمان ولا تسبوا القدر.

قررت السفر إلى أفغانستان لأجمع ما بقي لي من أموال على التجار، وكذلك زيارة أصدقائي من المجاهدين، وخصوصاً حيدر الذي لا أستطيع أن أنساه أبداً. والذي دائماً، تلوح صورته في مخيلتي، بوجهه الأسمر المبتسم كنت أعتقد بأن وجهه يشابه وجه الأنبياء. جميع الأنبياء خرجوا من رحم أرضنا هذه المباركة، وبالتالي أتخيل بأن وجوههم سمراء مثلنا. لم تكن رحلتي أمراً صعباً، كانت في غاية السهولة. هل هو قدرى أن أذهب ويتم اعتقالى؟ وأتحدث إلى صحفية لامعة مثلك! ذهبت برغبتي، كما فعل الكثيرون من شباب هذه الأمة. أنا متأكد من أن خطب الجمعة التي سمعتها في بلادي، سمعها جميع أبناء أمتي. هذه الأمة المغطاة بنسيج العنكبوت القدرى. ربما هم مثلي، يمشون إلى أقدارهم بأقدامهم، ويشكلون الزمن بأيديهم، كما يقول أفلاطون " وما العمر والزمن إلا وهم وغفلة".

شعرت بانقباض داخل نفسي. توقفت عن الحديث.

نظرت نحوي وقالت:

- حسناً، هذا يكفي سأعود بعد أسبوعين يا سيد كريم.
- أنا موجود هنا، إلى أين سأذهب؟! سأكون بانتظارك

يا سيدتي.

غادرت ولم تسألني أي سؤال. شعرت براحة نفسية عميقة. المرة الوحيدة التي شعرت فيها بارتياح يجتاح جوانحي. ابتسمت لكلمة يجتاح، لا أعرف لماذا هذه الكلمة بالذات خطرت على بالي؟ ربما هي الأكثر استعمالاً وشيوعاً

في صحافتنا. ربما... لم أعرف من صحافتنا إلا استقبل...  
وودع، لا شيء غير ذلك. خالجي شعور داخلي بأنها لن  
تعود. ولماذا تعود؟ ولم يههما أمر شخص مثلي؟ إنها صحفية  
وبالتالي ربما وجدت مادة صحفية خصبة لها. الأمران سيان  
إن عادت أو إن لم تعد. في قرارة نفسي وددت لو تعود.



بعد أسبوعين، جاءت ديبرا، وطيفها يسابق خطواتها.  
نعم... لقد جاءت وبدأ قلبي يتراقص بين أضلعي على صورة  
لم أعهدا إلا عندما كانت الفتاة الجيبوتية الحلوة السمراء،  
التي كنت أوهم نفسي بأنها تحبني، وأن بيننا علاقة لا  
يستطيع أعذب الشعر أن يصفها. تمر من أمام متجر والدي.  
عندها كنت أشعر بأن قلبي يكاد يقفز من صدري، وتبدأ  
أناملي بالارتجاف، وأحس بأن لساني قد بدأ يلتصق بسقف  
حلقي، وأن عيني بدأتا تدوران في محجريهما دون إرادتي.  
اقتربت ديبرا مني، شعرت بأني أعرفها منذ زمن  
بعيد... نعم... إنها هي... هي... هي عينها. إنها الملكة زنوبيا،  
تلك الملكة الذي قادها حظها العاثر، كما قادني حظي، إلى أن  
تكون سجيناً إمبراطور روما. هل كان هذا مقدرًا لها لأنها  
حاولت أن تكون مملكة تنبع من عمق الصحراء، وتصب  
حدودها في النهر؟ أراك أيتها الملكة العظيمة كسيرة النفس،  
مقيدة بالأغلال، مثلي تماماً. اقتربت ديبرا أكثر. رأيت خلفها  
وجوه أباطرة روما. رأيت أورليانوس وغاليانوس  
وكلوديوس. رأيت جميع وجوههم منقوشة على صفحة مزنة  
صيفية تائهة في السماء، لا تروي ضرعاً ولا تنبت زرعاً.

شعرت بالرطوبة تخنفتني، بدأت أتصيب عرقاً، اقتربت أكثر. لامست يداها الناعمتان قفصي. شعرت بدقات قلبي تتسارع، وأنه يقفز فوق الحجاب الحاجز حتى يصل حنجرتي. أريد أن أصرخ، أريد أن أخرج من سجن ذاتي. أغمضت عيني، لعلي أرى أطياف حياتي الباقية قادمة نحوي، تتراقص على فراشات قلبي. يزداد إيقاعها. ألتمس أوتار رقبتني، أشعر بجفاف حلقي، أحاول استمطار قطرات من ندى ذاكرة حياتي لأبلل بها ريقني، وأختار من أطياف حياتي فقط الطيف الذي أريد.

تحركت شفتاها، وقالت:

- كيف أنت يا كريم؟

بدأت أشعر بصقيع الحب يتسرب إلى جفاف شرابييني التي تسكن في كهف جسدي، تعطي إشارات الكيمائية بأن هناك خللاً ما في صحراء قلبي، تلك الصحراء التي لا يوجد فيها إلا القحط الذي لا ينتهي إلا بقحط آخر يفتح أفقه على صحراء أخرى، كصحاري أمتي. قضيت سنوات التيه وأنا أبحث عن ذاتي من خلال أمة فقدت ذاتها بفعل غيوم لم تفلح في أن تكون حبلتي بشحناتها. عجزت عن إسقاط مطر يشكل جداول وانهاراً تغذي حياتي وقلبي. لم أشعر إلا بالوقوف خلف ظلي منتظراً الاستمطار. كنت مثل جميع شباب هذه الأمة، أبحث عن بطل ينتشلنا من جفاف غربتنا في بلادنا. عن بطل يغير في أشكال موتنا المفتعل لننتصر على موت في خريف النهار، وعلى نار تحلم بالتوقد من عظامنا المسكونة بالوجع والانكسار. عن بطل يخرجنا من حالتنا الهلامية، التي تشكل وفق قالب مستورد. مقبول من يقبض

على صولجان السلطنة، ومرفوض من يتألم من جور  
سياطها. ربما تكون هذه المرأة هي المنفذ، هذه هي مولاتي،  
هذه مليكتي، هذه ملكة صحراء بلادي، هذه زنوبيا. حاولت  
أن أجمع قواي، وبالكاد نطقت شففتاي:

- أنا بخير يا مولاتي، لا شيء جديد.

دنت أكثر، ولامست أناملها شعري، شعرت بصعقة  
كهربائية تسري في جسدي، خلتها أقوى من تلك التي  
صعقتني بها السيد دنيس هوفر. هذه هي المرة الأولى التي  
تلمس شعري أنثى. ربما هي اللمسة السحرية، التي تحملت  
أنوار كفني فوق رمال البحر المشبعة بالرطوبة، كما حملت  
رياح الصحراء مولاتي زنوبيا إلى عبور نهر التبير. ربما  
شعرت بالاختناق، كما أشعر، لأنها أرادت منفذاً لمملكتها،  
كما أردنا نحن الآن، 'سدّت كل المنافذ، حاصروها، من شدة  
الحصار لم تستطع أن تشرب السم من خاتمها. أشتم رائحة  
البخور تعبق في جوانب قصرها. فاح منها عطر هزّ  
تفكيرتي، أشعل الدرب في أدغال كياني.

دنت من قفصي وأكثر وقالت:

- لقد نشرت تقريراً في صحيفتي عن وضع المعتقلين  
في غوانتنامو، وقد خصصت مساحة كبيرة عنك. هناك  
شعور داخلي في نفسي يقول بأنك مظلوم، وأن وجودك هنا  
خطأ ويجب تصحيحه. يعلو المقال صورة تعبيرية عن معتقل  
مقيد بأغلال حديدية بالكاد يستطيع جرّها، مثل التي أنا مقيد  
بها. نظرت إلى المقال ثم التفت إليها وقلت:

- تقرير ممتاز، ولا أعرف لماذا تشغلين بالك بمثل هذه

الأمر؟ ربما ما تقومين به هو ضرب من إضاعة الوقت!

صمتت لبضع ثوان، وأجابت:

- هذا هو واجب الصحافة الحرة، وواجبي كصحفية. لقد ناضلت كل الفترة التي غبتها عنك حتى أحصل على ملفك، وناورت بكل الطرق حتى استطعت أن أطلب وبشكل رسمي ملفك وقد حصلت عليه. وعرضته على محام كبير، ووعدني بأن سيدرسه بجدية. أريد أن أتبنى قضيتك. أعتقد بأنها تستحق أن أتابعها لأنني مؤمنة بها. قالت ذلك وهي تمرر أصابعها بين خصلات شعرها الذهبي القصير المتموج. تمنيت للحظة أن تكون أصابعي بدلا من ذلك. كيف لمثلي أن يحلم بذلك؟! ساقني قدري إلى هنا. هل يستطيع المرء أن يهرب من قدره؟ هناك محطات كثيرة في حياة الإنسان، بعضها يصلها بسرعة وبعضها يتأخر في الوصول إليها قبل الوصول إلى مصيره. لماذا لا أحاول أن أخون قدري؟ كيف لي أن أخونه؟ هل خلقنا الله لنستسلم لقدرنا؟ أو أن هناك فرصة لخيانته؟ لا...لا... لا تعجبي كلمة خيانة. ربما للاحتيال عليه؟ نعم...نعم... هذا ما أبحث عنه. الاحتيال على قدري. إنها فكرة جيدة. بدأت تروق لي أكثر وأكثر. ربما هذه فرصتي بأن أحتال على قدري. لماذا لا تكون هذه الصحفية وسيلتي للاحتيال على قدري؟ إن الله لم يخاطب أنبياءه مباشرة، بعث لهم الملائكة، والأنبياء خاطبوا البشرية. وقدري ساقها لي. نظرت إلى المقال مرة أخرى، ونظرت إليها:

- إنه تقرير رائع كل الروعة. أنا متأكد من أنك بذلت جهداً خارقاً ومجهوداً فوق العادة من أجل إخراجه بهذا

الشكل الساحر. إنه تقرير ممتاز. أنا متأكد من أنه أحدث هزة صحفية يا مولاتي زوبيا.

- من هذه زوبيا التي تحدثني باسمها؟

- يا للهول ماذا قلت؟! كنت أريد أن أقول ديبرا.

- حسناً، ولكن من هي زوبيا؟

- إنها ملكة بالميرا. ملكة أرى وجهك ينبض بقسمات

وجهها. لم تستطع شرب السم حتى لا تقع أسيرة الإمبراطور

الروماني، لأنها لا تريد أن تعيش ذل الأسر وتبقى كسيرة

النفس. قيدها بالأغلال، كما أنا مقيد أمامك. مرت من خلال

موكب مهيب، والكل ينظر إليها بشفقة دون رحمة. لقد خانها

قدرها بأن ماتت بعيدة عن موطنها وأهلها. لم يشهر أحد سيفه

ليعيدها أو حتى ليأخذ بثأرها. وأنا هنا فمّن يفكر بي وبأمثالي

الذين معي هنا أو في أي مكان. كم وددت أن أحارب تحت

ظلال سيوفها. ربما لا يسأل أحد عني يا مولاتي.

- إن اسم زوبيا يروقتني كثيراً، لقد أحببته، وسوف

أجري بحثاً عن ملكتك هذه.

- اعذريني يا سيدتي، إنني أرى شخصيتك فيها. لقد

أحببتها، كم وددت بأن أكون مقاتلاً معها.

- وهل هذا من باب الإعجاب أو الشفقة؟

- ربما من باب الهروب؟

لامست أناملها يدي. شعرت بأنفاسها تخترق صدري

لتغذي حجيرات قلبي. قالت بصوت خافت:

- ما بك؟

- لا شيء... لا شيء يا مولاتي. أحببتها وبالكاد أبتلع ريقى الذي جفّ فلم يعد لساني قادراً على أن ينزلق في حلقي.

- أنا الصحفية ديبرا وليست مولاتك زنوبيا يا سيد كريم!

- وددت لو أنك مولاتي زنوبيا لأتبعك. أنا مستعد أن أتبعك. عندي رغبة جامحة للاحتيال على قدري. لقد تبعت جميع أبطال أمتي. كلهم جاءوا بشعار واحد " بناء أمجاد هذه الأمة". تبعتهم جميعاً، واكتشفت بأني تابع لمتعهدي بناء ومقاولي حكم لا أكثر. سئمت من ذلك.

- وهل تريد أن تتبعني يا كريم؟ عبارة قالتها وهي ترد شعرها عن عينيها. أول مرة في حياتي يناديني أحد بهذه العذوبة. شعرت بجمال اسمي من عذوبة مناداتها لي.

- ولم لا!!! ربما أجد مستقبلي وقدري باتباعك.

- حسناً، سوف أعمل على ذلك. سأتركك الآن، سوف أعود إليك. أغمض عينيك وحاول أن تتذكر الأيام السعيدة في طفولتك.



عبارة جميلة قالتها ديبرا... أن أتذكر أيام طفولتي السعيدة! بعد أن خرجت من مكتب المحقق دنيس هوفر جاءني في اليوم التالي طبيب المعتقل وقال:

- لا بد من أنك تعاني من عدم القدرة على أن تتذكر الأحداث الماضية والتي مررت بها. أنا متأكد من أنك مررت بظروف صعبة للغاية. أنا لا ألومك، جميعنا نعاني من هذه

المشكلة، لا نذكر الأشياء والأماكن. كلنا ننسى. دس يده في جيبه وأخرج منها علبة بلاستيكية صغيرة تحتوي على بعض الحبوب بيضاء اللون. قال بصوت هادئ.

- يجب أن تأخذ هذا العقار، انه ينشط الذاكرة وتستطيع أن تعيد شريط ذكرياتك إلى الماضي، إلى أيام الطفولة. أيام طفولتك السعيدة.

- ولكن ذاكرتي جيدة ولست بحاجة إلى أي عقار لتنشيطها.

- لو أخذت العقار لكان أفضل وسوف تتذكر كل شيء، إنه تحت التجربة وتمت إجازته من الدوائر المختصة لهذا الغرض. إنه في المرحلة الثالثة من سلسلة التجارب. سيتم تسويقه بعد فترة وجيزة في الأسواق. ربما ستة أشهر على الأكثر.

- لا أستطيع تناوله أبداً. إن ذاكرتي جيدة، لا بل ممتازة. أنا أتذكر كل الأحداث التي مررت بها. لست بحاجة إلى عقارك.

- هناك من الأحداث الكثيرة التي تمر بنا ومع مرور الزمن لا نتذكرها. تناول هذه الحبة وسوف ترى ذاكرتك تجري بأحداثها مثل السيل الجارف.

- أنا لا أؤمن بهذه العقاقير. لقد قتلت أخي. أذكر عندما كنت صغيراً كنا نسكن بلدتي دجيل. اجتاح وباء الملاريا المنطقة التي كنا نسكنها، أصيب أخي الصغير بذلك الوباء، وكانت هناك منظمة عالمية خيرية تبشيرية، كانت تدعى "منظمة الرحمة بلا حدود"، ما زلت اذكرها جيداً، كان أخي يوماً يصغرني بعامنين، وتم إعطاؤه جرعات بمن عقار

لمعالجة الملاريا. جميع من تناولوا ذلك العقار ماتوا، بما فيهم أخي. كان حدثاً فظيماً بالنسبة لسكان بلدتي. حادثة محفورة في ذاكرتي. لا أستطيع أن أنساها أبداً. الآن أستطيع أن أجزم بأن جميع العقاقير التي يجلبونها لنا، تحت غطاء الخير، كانت تحت التجربة. وأنت تقول تطلب إليّ أن أتناول عقارك؟! لماذا نحن وليس غيرنا من يكونون ميدانا للتجربة؟! بداية من العقاقير ونهاية بالأسلحة.

أغمضت عيني، وشريط صورة جنازة أخي تمر أمام عيني. لم تكن الجنازة لأخي وحده. كانت لخمسة أطفال، جميعهم تناولوا العقار الملعون الذي كان عليه أن يقضي على وباء الكوليرا وليس عليهم. الجموع تسير من المسجد نحو المقبرة. الرجال صامتون وعويل النساء من خلفهم يعلو شيئاً فشيئاً على فقدان فلذات أكبادهنّ.

تزامن مرور موكب الجنازة مع مرور موكب الحاكم العسكري الفرنسي ممتطياً جواده العربيّ الأصيل، وإلى جانبه فتى يهرول بمحاذاة الجواد ممسكاً بنارجيلة بين يديه، وممسكاً طرف ثوبه بأسنانه. والحاكم يدخن وينفث الدخان من فمه نحو الجموع.

حاولت أن أتذكر شيئاً مفرحاً في صغري. ابتسمت وتذكرت عندما كنت في الرابعة من عمري. كان عصر يوم قائظ، وكنا نلعب كرة القدم وكانت الكرة مصنوعة من الملابس القديمة نتقاذفها فيما بيننا وتلقطها أقدامنا الحافية. سمعت أبي ينادي علينا جميعاً وحوله بعض الجيران، وبيده صندوق وقال:

- تعالوا استريحوا من اللعب وتناولوا الحلوى.

تركنا الملعب وركضنا نحوه. كان بجانبه شخص يحمل  
حقيبة سوداء، وجهه غير مألوف لدينا. أعطى كل واحد منا  
قطعة حلوى. ضمني أبي بين يديه ورفع ثوبي. اقترب  
الشخص وبيده مقص وملقط وبعض الشاش الأبيض. قطع  
الجزء الأمامي من الزائدة ورماه. أعطاني الحلوى وقال  
اذهب إلى أمك. سمعت أمي تزغرد. كل أب حضن ابنه.  
والأمهات يزغردن. الدموع تنهمر على خدودنا وكل واحد  
منا قابض على ثوبه من منتصفه ليأخذ شكل الهرم. الكل  
ينظر إلى الآخر نبكي تارة ونضحك أخرى.



-9-

جاءت ديبرا. إنها قادمة نحوي. أرى البسمة تغازل  
شفتيها. شعرت بارتياح عميق، ارتياح لم أشعر به من قبل،  
دنت مني وقالت:

- كيف حالك الآن؟

- رائع...أشعر بفرح غامر وارتياح عميق. معنوياتي  
عالية جداً وكذلك إبرة المؤشر النفسي تميل نحو القطب  
الموجب. أعتزف بأن هذا راجع إليك يا سيدتي.

رائع أن اسمع هذا. والآن انظر إلى هذا التقرير الصحفي.

تقرير صحفي بعنوان " عملية الوجه القبيح " مكتوب بخط أحمر كبير. يتناول التقرير نبذة تاريخية عن معسكر غوانتنامو ويقول: يقع خليج غوانتنامو في المقاطعة الشرقية من جنوب كوبا. تم استئجار مساحة خمسة وأربعين ميلاً مربعاً من خليج غوانتنامو من قبل الولايات المتحدة عام 1903 مقابل ألفي دولار في العام، ويبعد أربع مائة ميل بحرياً عن مدينة ميامي في ولاية فلوريدا. أصبحت قاعدة غوانتنامو مركزاً للقوة الضاربة المشتركة مائة وستين ومائة وسبعين، وتم نقل جميع من يطلق عليهم "المحاربون الأعداء" إلى هذه القاعدة، بعد أن كانت محطة لنقل المهاجرين غير الشرعيين وطالبي اللجوء من كوبا وهايتي وغيرها من دول أمريكا الجنوبية.

يوجد للسادة ساكني البيت الأبيض ثلاثة وجوه لا غير. الوجه الحسن وهو مخصص للشؤون الداخلية، والوجه السيئ والمخصص للدول القوية، والوجه القبيح والمخصص لباقي دول العالم.

إن دراساتي المتعمقة يا سيد كريم تشير إلى إن التخطيط لعملية "الوجه القبيح" كان منذ فترة من الزمن، قبل عشر سنوات على أقل تقدير.

كان الشغل الشاغل لساكني البيت الأبيض هو كيف يمكن تنفيذ هذه العملية؟ المراد منها إخافة دول الوجه السيئ والسيطرة على دول الوجه القبيح. درسوا جميع الأدبيات المتعلقة بمنطقتكم، خلصوا إلى نتيجة واحدة. يجب التركيز

على "نظرية المؤامرة". كل شيء في بلادكم مرده إلى نظرية المؤامرة. هنالك دائماً رياح صفراء تهب على كل شيء في بلادكم والسبب "نظرية المؤامرة".

كانت ديبرا تتحدث كأنها معلمة وأنا تلميذ واقف في محراب علمها. أتلقف كل كلمة تخرج من شفيتها القرمزيتين، كأنها أنغام ناي، لتعبر طبلة أذني وتستقر في عقلي.

والله إنها محقة في حديثها عن الرياح الصفراء. طالما سمعت وقرأت عن الرياح التي تهب علينا بين الحين والآخر، من رياح التغيير إلى رياح التجديد إلى رياح المؤامرة الصفراء. كنت أتمنى أن تهب رياح خضراء، ولو لمرة واحدة.

تابعت ديبرا حديثها قائلة:

- لقد اقتنع السادة ساكنو البيت الأبيض بهذه النظرية تماماً. ولكن أئى لهم أن يقنعوا الوجه الحسن والوجه السيئ؟ كيف يمكن ذلك؟ أجمعوا على أنه يجب أن يحدث شيء للوجه الحسن. الحدث لن يكون بتلك الأهمية إذا حصل للوجه السيئ.

هرشت رأسي ومن ثم غرزت سبابتي في صدغي الأيمن، على طريقة من العارف ببواطن الأمور، وفي حقيقة الأمر فأنا أقف واجماً أمام هذه المخلوقة الرقيقة التي تحاول جاهدة، من خلال مهنتها، أن تصل إلى بواطن الأمور لما يجري. كنت أتمنى أن يكون صحفيو بلادي في مستواها المهني. لقد أطلقوا على بعض الصحفيين في بلادي " قوات التدخل السريع". الآن عرفت لماذا أطلقوا عليهم هذا اللقب؟

إن ديبرا محقة. ربما لتجنب البلاد والعباد خطر رياح  
المؤامرات الصفراء، وهي كثر.

- وماذا حدث بعد ذلك يا سيدتي؟ سؤال خرج من بين  
شفتي وأنا أبتلع ريقِي.

امتدت يدها إلى شعرها الذي يتدلى على عينيها،  
ورفعت به أناملها ليرقد خلف أذنيها، وقالت:

- قال سيد حكماء ساكني البيت الأبيض إنه يجب أن  
يضرب الوجه الحسن في عفته. لقد كان راعي أبقار وكان  
يصطاد الثور الأمريكي ويعمد إلى خصيه حتى يسمن. يجب  
خصي الوجه الحسن بضرب برجيته، بعد ذلك نجني  
المكاسب الهائلة. دهش الجميع من طرح هذا الأسلوب. ولكنه  
أقنعهم بأن المغامرة تستحق ذلك وأن المكاسب أكثر بكثير  
من الخسائر.

الآن يجب أن أعود إلى ميامي لاستكمال بقية تقرير  
الصحفي. وبالمناسبة لقد أوكلت محامياً للدفاع عنك، إنه من  
أمهر المحامين في فلوريدا وأكبرهم. لقد أقنعت به عدالة  
قضيتك. وأنا متأكدة من أننا سنكسب القضية.

لقد سررت جداً في قرارة نفسي لأنها أوكلت قضيتي  
إلى محامٍ. قررت أن أخلد إلى النوم باكراً. في بلدتي، كما في  
جميع بلاد أمتي، الجميع يذهب إلى الفراش مبكراً. ربما  
حالة نفسية لرغبة الفرد منا أن يرى أحلاماً وردية في المنام،  
على الأقل، لتعادل حالة كوابيس الحياة اليومية. معادلة  
كيميائية الحياة بين صراع حاضر البقاء ومستقبل البناء.



## -10-

أعدّ يوم الأحد من أسوأ أيام الأسبوع على الإطلاق، حيث يتم اقتيادنا بعد الظهر إلى الشاطئ الرمليّ تحت الحراسة المشددة وأيدينا مقيدة خلف ظهورنا، وأقدامنا مربوطة بأغلال من الصلب. يتم تجهيز حفر بعمق متر تقريباً، ويضعون المساجين فيها ويغمرونهم بالرمال حتى الصدر لنشكل حدوداً لملاعب البيسبول والذي تبلغ مساحته تسعين قدماً مربعاً. يتكون كل فريق من تسعة لاعبين. حيث يتناوب اللعب كل من الفريق المضيف والفريق الزائر. والفريق الضيف دائماً يكون في موضع الدفاع بينما يكون الفريق الزائر في موضع الهجوم.

كان وضعي في حدود الملعب من أصعب الأوضاع مقارنة مع وضع المساجين الآخرين. كان دائماً وضعي وراء ماسك كرة البيسبول المصنوعة من المطاط والمغطاة بجلد الفرس الأبيض، تزن خمس أو نصات وربعاً ويبلغ محيطها تسعة إنشات وربعاً. يقوم رامي الكرة بقذفها بقوة نحو قاذف الكرة ليبعدها بعيداً بعصا البيسبول المخصصة لهذا الغرض، وكثيراً من الأحيان لا يستطيع قذفها، ويجب على ماسك الكرة أن يقوم بإمساكها، ولكن كثيراً من ما يتركها ترتطم برأسي عمداً، وليس عجزاً منه عن عدم إمساكها. وترتد من رأسي إلى ماسك الكرة.

وإذا ما نجح قاذف الكرة بقذفها بعيداً، يقوم الراكض بالجري نحو المحطات الموجودة في الملعب. رؤوس المساجين هي الرايات المميزة لهذه المحطات. يرتطم

الراكض بحذائه برأس السجين ليحرز نقاطاً، ويخلف الآما  
تنتابنا لأسابيع وأسابيع.



ربما تكون تجربة الحب التي بدأت أشعر بها أشد رعباً  
من جميع اللحظات التي عشتها وحيداً في قفصي. أستعيد  
حديث ديبرا مراراً وتكراراً. إن الكلام يستطيع التدمير بشكل  
هائل دون أن يترك أثراً!! بت محتاراً إلى أين يقودني  
مصيري في هذه الغربة الموحشة؟! فقط طيف ديبرا هو  
الذي يمدني بالشجاعة، وإن هناك بصيصاً من الأمل قادماً  
لنجدتي منها وليس من غيرها.

جاءت ديبرا ومعها شخص حسن الهندام ويبدو أنه  
يختار لباسه بعناية فائقة. البدلة وربطة العنق والحذاء كلها  
متناسبة ومنتاسقة الألوان. اقتربت ديبرا نحوي وأقلت التحية  
وبسمتها تعلقو وجهها، وقالت:

- أريد أن تتعرف إلى المحامي السيد كيرت  
سوليفيان. إنه من أشهر محامي فلوريدا، لا بل أشهر محامي  
الولايات المتحدة. لقد تعبت كثيراً حتى أقنعت به عدالة قضيتك.  
لا يهمننا القضية بقدر العدالة. لقد زودته بجميع التقارير  
الموجودة عندهم وكذلك حديثك لي. هناك ضغوط على إدارة  
ساكني البيت الأبيض. ربما نصل معهم إلى تسوية بشأنك.  
إن تقرير الأخير أحدث هزة في إدارتهم. الكل منهم أصبح  
مثل الكلب المسعور لا يعرف ماذا يفعل؟ صمنت لبرهة.  
تناولت من حقيبتها تقريرها الأخير الذي نشرته في صحيفتها  
ميامي غازيت. لقد اخترت عنوان " عملية المقلاة " عنواناً

لتقريري. يتحدث التقرير عن إبقاء أفغانستان تحت النار، مثل المقلاة على المرجل. لإشباع رغبات الوجه الحسن الذي أدمن نطف المنطقة من ناحية، وإرهاب دول المنطقة من ناحية أخرى. انظر إلى الخارطة التوضيحية هنا يا سيد كريم. يمكن الإمساك بيد المقلاة، التي تمتد إلى حدود دول الوجه السيئ، وقلبها عليهم، أو خنق اقتصادهم. وإبقاء دول الوجه القبيح فوق المرجل.

التفتت إلى السيد سوليفيان وقالت له:

- هل تريد التحدث إلى السيد كريم؟
- ليس لدي الكثير لأقوله، أجب بكل هدوء. جميع ملفات القضية واضحة عندي. أريد أن أخبرك يا سيد كريم بأن من المحتمل أن تكون هناك صفقة للإفراج عنك.
- وما نوع هذه الصفقة يا سيد سوليفيان؟!
- أفضل أن تجيبك الآنسة ديبرا عن هذا السؤال. سأدعكما الآن معاً. أنا ذاهب إلى مكتب السيد توماس هابيكونز لأتحدث إليه وأسلمه كتاباً من مكتب التحقيقات الفيدرالية.

اقتربت مني أكثر وقالت:

- لقد كنت أنظر إليك كسجين يحمل رقم خمسة وأربعين لا أكثر من ذلك. كنت بحاجة إلى مادة صحفية وإلى سبق صحفي. من خلال عملي عرفت الكثير وما كتبته لا يتجاوز أربعين بالمئة مما أعرفه أو يعرفه ساكنو البيت الأبيض. الأمور متشابكة جداً، ونسيج خيوط غزلها معقد جداً. وهناك خوف من نشر الحقيقة. أعترف بأنني أميل إليك وأرغب في أن أكون معك. لقد عقدت اتفاقاً، من حيث المبدأ،

أن أتوقف عن كتابة التقارير مقابل الإفراج عنك. في حال الإفراج عنك سنغادر سوياً إلى بلادك أو أيّ مكان آخر. أنا مستعدة للمغامرة والذهاب معك. السيد سوليفيان هو الوسيط وهو الذي كان حلقة الوصل بيني وبين الإدارة.

بكل بساطة يا كريم، لا ربح ولا خسارة. إذا كنت مستعداً لهذا يمكن المضيّ السير بإجراءات الإفراج وإن كنت لا ترغب فأنا لا أستطيع أن أعمل أكثر من هذا. يمكنك أن تأخذ الوقت الكافي للتفكير واتخاذ القرار الأفضل، أو الذي تعتقد أنّه مناسب.

ساد صمت قاتل، خلته دهرأ. نظرت إلى عينيها، وهمست شفتاي بكلمة أحبك. أنت قدرتي، هربت من قدرتي لآتي إليك في هذا المكان، في هذا الوقت، في هذا الطرف. حدثت نفسي عن الهرب من قدرتي. لم أستطع، ولكن ربما الاحتيال عليه والخروج من هنا. لم يسأل أحد عني غيرك، ولم يأت لزيارتي سواك. أنت مفتاح الاحتيال على قدرتي. سنعود إلى مسقط رأسي، إلى بلدة دخيل في جيبوتي. أريدك أنت وليس سواك يا ديبيرا.

- قلبي كان يحدثني بأن هذا ما سيحصل. سوف أذهب إلى السيد سوليفيان وأخبره بالموافقة وأعود إليك بعد أيام لاستكمال الإجراءات القانونية. دنت مني وطبعت قبلة على خدي الأيمن، امتد دفتها إلى كل أنحاء جسمي.





بقي على نهاية عام 2004 عشرة أيام. الكل في المعسكر مشغول بالاستعداد للاحتفال بقدوم عام جديد، نصبوا منصة من الخشب بانتظار فرق للترفيه عن الجنود في المعسكر بمناسبة عيد الميلاد ورأس السنة الميلادية. بدأ الاحتفال في تمام الساعة العاشرة صباحاً، بأغان من فرقة أعلنت بأنها تدعى قوس قزح تعزف الموسيقى الريفية. حضرت بعد ذلك فرقة أخرى أعلنت عن نفسها باسم، حار أحمر وأزرق، وبدأت تعزف موسيقى وأغاني الروك والروول وأغانيها، من فترة الستينيات وحتى هذا العام. هكذا أعلنوا، لم يكن أمامي خيار إلا الاستماع لهذه الموسيقى والأغاني التي لا أعرفها ولا أفهمها. كانت مكبرات الصوت تصدح بصوت عال، وأنا في قفصي أسمع وأشاهد هذه الفرق تعزف وتغني، وجميع من في المعسكر يتمايل مع صوت الموسيقى، والكل يحمل زجاجة من خمر ليفرغها في جوفه، ويتناول أخرى وأخرى. بعد ذلك حضر عدد من الراقصات، اعتلت إحداهن المنصة وبدأت ترقص وتتمايل، وتتعري شيئاً فشيئاً، أشحت بوجهي جانباً. سمعت أحد المعتقلين يصلي في قفصه. بدأ القراءة بصوت خفيف، وارتفع صوته مع ارتفاع صوت الموسيقى. الأضواء تعكس لمعانها على وجوه جميع المساجين. تعالي صوت الموسيقى وتعالى صوت السجين في الصلاة. وفجأة سمعت صراخاً، ورأيت الكل يركض مسرعاً نحو المنصة، لقد وقعت الراقصة مغشياً عليها. تم نقلها إلى المستشفى لإسعافها. اقترب مني السيد توماس هابيكونز، وقال:

- سمعتك تقرأ شيئاً ما، ما هو؟
- لست أنا. أحد المساجين كان يصلي في قفصه. لا أنا ولا بقية المعتقلين نرغب في مشاهدة هذا الحفل. أنتم تجبروننا على مشاهدته. ليس لنا رغبة في ذلك.
- هل هذا نوع من السحر الأسود؟
- لا أعتقد ذلك، فقط كان يصلي.
- هل تعتقد أنها ستموت، أم ستعيش؟
- لا أعلم، ولكنك قلت بأنها وقعت مغشياً عليها. ولماذا أكون أنا السبب في ذلك؟ أنا لم أفعل شيئاً.
- أنا عندي إحساس قوي، بأن ما كنت تقرأه هو السبب في وقوعها مغشياً عليها.
- لماذا لا يكون السبب الإرهاب نتيجة السفر.
- هذا ما قلته لمدير فرقتهم. ولكنني لست مقتنعاً به. لقد أفسدت حفلة الليلة وبقية الحفلات. إنهم يجمعون معداتهم للمغادرة.
- وهل ستضاف تهمة جديدة إلى التهم السابقة؟
- هذا الأمر سأحتفظ به لنفسِي.
- تمنيت أن أرحل من هنا قبل نهاية العام. لقد وعدتني ديبرا بأنها ستعود سريعاً، قبل عيد الميلاد. يجب أن تعود وإلا تأخر كل شيء إلى العام القادم. أشعر بضيق وبرغبة في الهروب.

\*\*\*

كان صبيحة يوم الرابع والعشرين من كانون الأول  
أسعد يوم في حياتي. جاءت ديبرا راكضة نحوي ومعها  
السيد توماس هابيكونز. قالت وهي تلهث:  
- أخيراً أنت حر. لقد أحضرت لهم مذكرة للإفراج  
عنا.

أمر السيد هابيكونز الحرس بإخراحي من القفص وبفك  
أغلامي. وقال بلهجة الواثق من نفسه والشعور بالنصر. أنت  
حر الآن. نعم...أنت حر الآن.  
لم أصدق كل ما يحدث لي. وضعت ديبرا تاجاً دائرياً  
على رأسي، مصنوعاً من الورق المقوى، لونه أصفر  
ومكتوب على محيطه باللون الأسود Bananabanana.  
هذا التاج لأفضل بائع موز بالعالم. والآن لنذهب من  
هنا.

وددت لو أستطيع أن أودع بقية المعتقلين. لا يمكن ذلك،  
وليس بيدي أي حيلة. ولكن أعدكم بأنني لن أتخلي عنكم،  
عبارة قلتها في سريرتي.

- لنرحل يا كريم من هنا. أم تود أنك البقاء؟
- هيا يا ديبرا لنرحل من هنا.
- استقللنا طائرة صغيرة إلى مطار ميامي الدولي.
- ومن سلم الطائرة مباشرة إلى طائرة أخرى. جلسنا في  
الدرجة الأولى. سألت ديبرا:  
- إلى أين نحن ذاهبون؟
- أجابتنني بفرحة غامرة:
- - إلى تايلاند. سنقضي شهر العسل هناك، وبعد ذلك  
تختار المكان الذي ترغب أن نعيش فيه.

- أنا فعلا بحاجة إلى الراحة وإلى قضاء شهر عسل  
ممتع معك. سنتزوج حال وصولنا.  
- هذا ما سيكون يا كريم.  
وصلنا إلى مطار بانكوك في فجر السادس والعشرين.  
ومن ثم انتقلنا بطائرة صغيرة إلى منتجع بحريّ جنوب  
تايلاند. أخبرتني ديبرا بأنها حجزت لنا في المنتجع غرفة  
مطلّة على البحر. أخيراً وصلنا إلى المنتجع بعد رحلة طويلة  
وشاقة ومتعبة. كنا متعبين، تسابقنا على إلقاء أنفسنا على  
السرير من شدة التعب. أخذ النوم منا مأخذه. صحونا على  
صراخ الناس في كل مكان حولنا.  
نظرت إلى السماء فإذا هي منطبقة على البحر جارفة  
الأمواج العالية نحونا.  
الكل يصرخ " تسونامي، تسونامي".

تنويه:...، عثر على هذه المذكرات داخل حقيبة جلدية  
ذات لون أسود، مقاومة للماء، بعد انحسار تسونامي في  
منتجع خاولاك البحريّ جنوب تايلاند.